فالتر بنيامين

طفولة برلينية

في مطلع القرن العشرين

@ketab_n
26.5.2015

@ketab_n

ترجمة: أحمد فاروق

فالتر بنيامين

طفولة برلينيّة
في مطلع القرن العشرين

@ketab_n

ترجمة : أحمد فاروق

مراجعة : مصطفى السليمان

Twitter: @ketab_n

طفولة برلينيّة
في مطلع القرن العشرين

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1436هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

PT2603.E455 B412 2013
Benjamin, Walter, 1892-1940
[Berliner Kindheit um neunzehnhundert]
طفولة برلينيّة في مطلع القرن العشرين/ فالتر بنيامين؛ ترجمة أحمد فاروق؛ مراجعة مصطفى السليمان.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 112 ؛ 17,7 × 10,8سم.
ترجمة كتاب: Berliner Kindheit um neunzehnhundert: Giessener Fassung
تدمك: 978-9948-17-250-5
1- Benjamin, Walter, l d1892-1940.
2- المؤلفون الألمان- القرن العشرين- تراجم.
أ- فاروق، أحمد. ب- سليمان، مصطفى.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Walter Benjamin
Berliner Kindheit um neunzehnhundert. Fassung Letzter Hand.
© Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1987

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال اي جزء من هذا الكتاب باي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتوى

كلمة للمترجم..... 9
تقديم 13
شرفات..... 14
البانوراما القيصرية..... 18
عمود النصر..... 20
الهاتف..... 23
صيد الفراشات..... 25
منتزه «تيرغار تن»..... 27
وصول متأخّر..... 31
كتب الصبيان..... 32
صباح شتويّ..... 34
عند تقاطع شارع شتيغليتس وشارع غنتين..... 36
أحجيتان..... 39
السوق المسقوف..... 41
الحمّى..... 43
ثعلب الماء..... 48
جزيرة الطاووس وغلينيكه..... 51
نبأ وفاة..... 55
بلومسهوف رقم 12 56
مساء شتويّ..... 60
الشارع المنحني..... 61
الجورب..... 63
«المومه» ريلين..... 64

Twitter: @ketab_n

مخابئ..... 66
شبح..... 67
ملاك عيد الميلاد..... 69
حوادث وجرائم..... 71
الألوان..... 75
صندوق الخياطة..... 76
القمر..... 79
فرقتان للموسيقى النحاسيّة..... 81
القزم الأحدب..... 83
حفلة..... 87
خزانات..... 91
شحّاذون ومومسات..... 96
سفر وعودة..... 98
صندوق القراءة..... 100
«رفيق الشباب الألماني الجديد»..... 102
مكتبة التلامذة..... 103
الدوّارة..... 106
غرفة المؤن..... 107
«مسرح القرود»..... 108
اليقظة الجنسية..... 109
المكتب..... 110

Twitter: @ketab_n

يا عمودَ النّصر يا حلوى محمّصة
معطّرة بتوابلِ الطفولة!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كلمة للمترجم

ليست هذه بسيرة ذاتية عادية يحكي فيها المؤلّف عمّا عايشه في طفولته، ولا هذا بكتاب عن معالم برلين عند مطلع القرن العشرين، إنّها صور نقشها فالتر بنيامين على جدران الزمن أثناء حفره في ماضي الطفولة. فهو يشبّه عملية التذكّر بالحفْر ويرى أنّ هذا الحفر في الذاكرة ليس عملاً اعتباطيّاً: «وبالطبع يكون مفيداً إنجاز أعمال الحفر وفقاً لخطط. لكنّ ما لا غنى عنه أيضاً هو ضربة الجاروف المتحسّسة الحذرة في التربة المظلمة، وسيخدع نفسه على أفضل نحو من يقوم فقط بجرد ما عُثِر عليه ولا يستطيع أن يحدّد في تربة الحاضر المكان والموضع الذي حُفِظ فيه القديم». وقد أثّرت تربة الحاضر بالفعل على كتابة هذا العمل، ففي عام 1931 بدأ بنيامين بناءً على طلب من مجلّة «عالم الأدب» Literarische Welt البرلينية تدوين ذكريات ذات طابع شخصيّ عن برلين تحت عنوان «وقائع برلينية»، شكّلت الأساس لهذا الكتاب، لكنّها تميّزت بالإسهاب وتضمنّت تعليقات وهوامش. ولما أدرك بنيامين في صيف عام 1932 أنّه سيغادر قريباً مسقط رأسه، وربّما بلا رجعة، مع انتشار المدّ اليمينيّ المتطرّف في ألمانيا وتولّي النازيّين مقاليد الحكم في عام 1933، اتخذ العمل منحى آخر أميَل إلى الاقتضاب المحسوب وكأنّه رسّام يعالج لوحته بحسابات لونية دقيقة لكي تظهر في الضوء الذي يرغب فيه. ولقد استمرّ بنيامين في الاشتغال على نصوص الطفولة البرلينية وتنقيحها من عام 1932 إلى عام 1938، وهذه الصيغة التي بين يدي القارئ تعتمد على آخر ترتيب للنصوص وضعه بنيامين بنفسه في عام 1938 بالإضافة إلى بعض النصوص المتفرّقة. وقد عُثِر على مخطوطة هذه الصيغة في المكتبة

Twitter: @ketab_n

الوطنية بباريس عام 1981، فقبل فراره من باريس عام 1940 خوفاً من اعتقاله على يد النازيّين عهد بنيامين بمخطوطاته إلى الفيلسوف الفرنسيّ جورج باتاي الذي كان يومذاك مدير المكتبة المذكورة ليخفيها، وظلّت مفقودة إلى أن تمّ اكتشافها في المكتبة الباريسية. وكان تيودور أدورنو قد نشر أوّل طبعة من هذا الكتاب عام 1950 قام بتجميعها اعتماداً على عدّة مخطوطات وأجزاء تمّ نشرها في الصحف ووفقاً لترتيب من ذاكرته يعود إلى صيغ النصوص في عامَي 1933 و1934.

ولا شكّ أنّ بنيامين الذي عاش طفولة رغيدة في حيّ شارلوتنبورغ البرلينيّ الغنيّ، وعانى في أوج شهرته كمفكّر وناقد أدبيّ لامع من صعوبة تأمين معيشته، قد حرص كما قال في مقدّمته على تحصين نفسه ضدّ الحنين إلى الماضي. وهذا واضح من استهلاله الكتاب بالشرفات التي لا تصلح للسكنى رغم كلّ ما لها من ذكريات لطيفة في نفس الكاتب، واختتامه بنصّ القزم الأحدب الذي يرافقه في كلّ أماكن طفولته ويحرص على نسيانه لنصف الأشياء، وبذا تصبح الذاكرة مشوّهة وغير مكتملة. وإذا كانت باريس لدى بنيامين مدينة للتسكّع وعاصمة للقرن التاسع عشر، فإنّ برلين تكاد تكون مدينة أثريّة شبه مهجورة، وبرجوازيّتها آخذة في الانقراض، ويتضح ذلك جليّاً في الكآبة الطاغية على بيوت الغرب البرلينيّ وغرفها الكثيرة الخالية، والتي لا تحلّ بها البهجة إلاّ في الأعياد. وعلى الأغلب فإنّ بنيامين كان يشعر في طفولته بالضجر أيضاً من التعليم المدرسيّ العقيم الذي كان على ما يبدو سمة بارزة لعهد فيلهيلم ذي الصبغة البروسية العسكرية في ألمانيا، وهذا ما كان يدفعه إلى الهروب إلى الخيال والاستماع للقصص التي تحكيها ندف الثلج وتخيّل تفاصيل

Twitter: @ketab_n

القصص التاريخية والخيالية التي يقرأها في أثاث البيت، العتيق الضخم. ورغم استغراق الطفل في خيالاته، إلاّ أن عينه لم تغفل عن رصد ذكيّ لملامح العصر وتحوّلاته كالحديث عن دخول الهاتف إلى المنازل البرلينية وعن الصالات الرياضية وما تتميّز به من أجواء استعراضيّة، وعن تسليم البانوراما القيصرية الراية لفنّ السينما الناشئ، وأخيراً وليس آخراً رصد الفقر المستشري في المدينة واكتشاف المراهق في شوارعها للغريزة الجنسية.

تتماسّ بعض نصوص هذا الكتاب مع كتاب آخر مهمّ لفالتر بنيامين هو «شارع اتّجاه واحد» الذي يميل إلى أسلوب الشذرات أو النصوص النثرية القصيرة في عرض تأمّلاته حول واقع الحياة في ألمانيا في عشرينيّات القرن الماضي خلال فترة التضخّم الهائل التي تلت الحرب وما بعدها. وقد قام المترجم اللاّمع أحمد حسّان قبل بضعة أعوام بترجمته إلى العربية نقلاً عن الترجمة الفرنسية والإنجليزية، كما أصدر أيضاً مجموعة من أهمّ مقالات فالتر بنيامين في كتابين هما «مقالات مختارة» وشارل بودلير، شاعر غنائيّ في حقبة الرأسمالية العليا». وقد كان هو من حثّني على الإقدام على ترجمة «الطفولة البرلينية»، لكنّني تلكّأت كثيراً في الاستجابة نظراً لما تنطوي عليه ترجمة هذا العمل من تحدّ كبير. فلغة بنيامين على رهافتها حمّالة أوجه، كما أنّ نصوص هذا الكتاب تختلف عن مقالاته التحليليّة في كونها أقرب إلى كثافة النصّ الشعريّ، ولهذا فقد استغرقت ترجمته نحو عام ونصف العام. ولا بدّ من أن أتوجّه بالشكر هنا إلى الصديقين والزميلين هيثم الورداني وأحمد حسّان، اللذين كلّفا نفسيهما عناء مراجعة النصّ على أصله الألماني وترجماته الإنجليزية

Twitter: @ketab_n

والفرنسية، مما جنّبني الكثير من الهفوات والكبوات، كما أشكر أيضاً أصدقائي الشاعر علاء خالد والشاعرة إيمان مرسال والكاتب هاني درويش على قراءتهم مخطوط الترجمة وإبداء ملاحظاتهم عليها، فلهم جميعاً جزيل الشكر على جهدهم، وأتمنّى في الختام أن أكون قد وُفّقت في نقل هذا الكتاب القيّم إلى المكتبة العربية.

برلين في 2011/9/27

أحمد فاروق

Twitter: @ketab_n

تقديم

في عام 1932 عندما كنتُ في الخارج، بدأ يتّضح لي أنّني سيتحتمّ عليّ في القريب العاجل أن أودّع المدينة التي ولدت فيها لفترة طويلة أو ربّما على الدوام.

لمرّات عديدة كانت خبرة عملية التطعيم شافية لحياتي الداخلية، فوضعت نفسي في هذه الحالة واستدعيت عمداً أكثر الصّوَر إثارة للحنين في المنفى، إنّها صور الطفولة. وكان ضرورياً ألاّ تتعدّى هيمنة الإحساس بالحنين على الروح ذلك التأثير الذي يتمتّع به التطعيم على جسد سليم. وقد سعيت لتحجيم هذا الإحساس عن طريق التبصّر في الحتميّة الاجتماعية لعدم إمكان استعادة الماضي، وليس من خلال النظر في تفاصيل السيرة الحياتية العارضة.

وقد أدّى ذلك بدوره إلى انسحاب الملامح الشخصية التي ترتسم بالأحرى عبر استمرارية التجربة، لا عبر عمقها، انسحاباً تامّاً خلال هذه المحاولات، ومعها انسحبت ملامح الوجوه -وجوه عائلتي ورفاقي. وعلى النقيض من ذلك بذلت قصارى جهدي لجعل الصّور التي تعكس خبرة المدينة الكبيرة في نفسِ طفلٍ من الطبقة البرجوازية في متناول اليد.

وأرى أنّ من الممكن أن تحتفظ هذه الصّور بمصير خاصّ بها. فلم تثبتّها بعدُ أيّة أشكال دامغة، كتلك المرتبطة بالإحساس الطبيعيّ المعهود منذ قرون في ذكريات طفولة في الريف. في المقابل، قد تكون صوَر طفولتي في المدينة الكبرى قادرة في جوهرها على عرْض خبرة تاريخية لاحقة. وآمل من خلالها على الأقلّ أن يتّضح كيف تخلّى الشخص الجاري الحديث عنه هنا فيما بعد عن الأمان الذي نعمت به طفولته.

Twitter: @ketab_n

شرفات

مثل أمّ تضع طفلها الحديث الولادة على صدرها دون أن توقظه، هكذا تفعل الحياة لوقت طويل مع ذكرى الطفولة التي لا تزال رهيفة. ليس ثمّة ما يعضد ذكرياتي بحميميّة أكثر من النظر إلى الأفنية، تلك التي كان بين شرفاتها المظلمة واحدة تغطّيها المظلاّت في الصيف، وكانت لي المهد الذي وضعتْ فيه المدينة مُواطنها الجديد. قد تكون تماثيل الكارياتيد[1] التي كانت تحمل شرفة الطابق التالي غاردت أماكنها للحظة لتنشد أمام ذلك المهد أغنية لم تتضمّن الكثير ممّا كان سينتظرني لاحقاً، لكنّها تضمّنت مع ذلك تلك المقولة التي جعلت هواء الأفنية يفتنني على الدوام. وأعتقد أنّ نفحة من هذا الهواء ظلّت موجودة في جبال الكروم في كابري حيث عانقتُ المحبوبة، وفي هذا الهواء نفسه تعلّق الصّور والاستعارات التي تهيمن على تفكيري، كما تهيمن تماثيل الكارياتيد من ذرى الشرفات على أفنية منازل الغرب البرلينيّ.

كان إيقاع ترام المدينة ونفض السجاجيد يهدهدني أثناء النوم. لقد كان هو القالب الذي تشكّلت فيه أحلامي، في البداية تلك الأحلام التي لم يكن لها ملامح واضحة والتي ربّما تشبّعت بخرير المياه ورائحة الحليب، ثمّ تلك الأحلام الطويلة الممتدّة: أحلام السفر والمطر. هنا رفع الربيع أُولى رايات رغباته أمام قفا المبنى الرماديّ. وعندما كانت أوراق تعريشة الشجر المغبرّة تلامس في وقت لاحق من العام حائط البناية ألف مرّة في اليوم، كان حفيف الأغصان يأخذني في رحلة معرفة لم أكن مؤهّلاً لها

1- تمثال امرأة أو فتاة يُستخدَم عموداً. المترجم.

Twitter: @ketab_n

بعد. إذ إنّ كلّ ما في الفناء كان يلمّح لي بشيءٍ ما. فكم من الرسائل كانت تخفيها مناوشات الستائر اللفّافة الخضراء عند رفعها، وكم من الرسائل المشؤومة تركتُها بحذقٍ غير مفتوحة مع دويّ انزلاق مصاريع النوافذ عند الغسق!

كان الموضع الذي وقفت فيه الشجرة هو أكثر ما يشغلني في الفِناء. لقد كان مفرغاً من حجارة الرصف التي غُرست فيها حلقة حديدية واسعة تمرّ عبرها قضبان معدنية بحيث تسوّر التربة العارية. ولم يبدُ لي أنّ تلك القضبان قد وُضعت سُدىً. أحياناً كنت أفكّر في ما يحدث داخل الحفرة السوداء التي خرج منها جذع الشجرة. ولاحقاً امتدّت أفكاري لتشمل موقف عربات الأجرة التي تجرّها الخيول، إذ إنّ الأشجار هناك نبتت بشكل مشابه، كما أنّها كانت مسيّجة. كان الحوذيّون يعلّقون على السياج عباءاتهم، أثناء ملئهم حوض مضخّة المياه للخيل. كان الحوض منخفضاً داخل الرصيف وتيّار المياه المتدفّق يزيل آثار القشّ والشوفان. وبالنسبة لي كانت أماكن انتظار العربات تلك التي لم ينقطع هدوؤها إلاّ نادراً مع مجيء العربات أو رحيلها، بمثابة امتدادات نائية لفِنائي.

امتدّت حبال الغسيل من حائط الشرفة إلى الحائط الآخر، وبدت النخلة أكثر تشرّداً عندما لم يعد الجزء الداكن من التربة منذ زمن بعيد هو موطنها، بل الصالون المجاور. هكذا أراد قانون المكان الذي دارت حوله أحلام السكّان فيما مضى. فقبل أن يطويَ النسيانُ المكانَ، تولّى الفنّ أحياناً مهمّة إعطائه مكانة سامية. أحياناً كان يخطف سلّة أو تمثالاً برونزيّاً أو زهرية صينية إلى محيطه، ولئن ندرَ أن أعطت هذه الأشياء

Twitter: @ketab_n

القديمة للمكان الشرفَ اللائق به فقد كانت ملائمة لما كان يملكه هو ذاته من قِدَم. كان اللون الأحمر البركانيّ الذي امتدّ على هيئة شريط عريض على الحائط هو الخلفية المتاحة للساعات التي تكدّست في تلك العزلة. شاخ الزمن في تلك الغرف الوارفة الظلّ التي انفتحت على الأفنية. ولهذا كان الصباح، عندما كنت أصادفه في شرفتنا، صباحاً منذ وقت طويل بحيث بدا هناك أنّه هو ذاته أكثر ممّا في أيّة بقعة أُخرى. لم أستطع قطّ أن أكون في انتظاره، فقد كان دائماً في انتظاري. كان موجوداً منذ زمن وكأنّه موضة عفا عليها الزمن، عند عثوري عليه هناك في النهاية.

فيما بعد اكتشفتُ الأفنية مجدّداً من على سدّة القطار الترابيّة. في أصائل الصيف ذات الرطوبة العالية عندما كنت أنظر إليها من نافذة مقصورة القطار، كان الصيف يبدو محتجزاً داخلها وكأنه معزول عن الطبيعة المحيطة. وبدت نبتة إبرة الراعي بزهورها الحمراء الخارجة من أصيصها أقلّ مناسبة له من الأفرشة الحمراء التي كانت تُنشَر في الصباح على حافة الشرفة لتهويتها. وفّرت كراسي الحديقة الحديدية التي بدت وكأنّها مصنوعة من أغصان أو قصب ملفوف، مجالاً للجلوس في الشرفة. كنّا نسحبها لنجلس عليها عندما تلتئم حلقة القراءة في المساء. من كأس له لمعة اللهب الأحمر والأخضر يسقط ضوء مصباح الغاز على كتيّبات «ريكلام»[1]. كانت زفرة روميو الأخيرة تعبر فِناءنا بحثاً عن الصدى الذي أعدّه قبر جولييت خصّيصاً لاستقبالها.

1 - سلسلة تصدرها دار نشر «ريكلام» Reclam الألمانية الشهيرة ليومنا هذا في طبعة رخيصة وصغيرة الحجم وتضمّ كلاسيكيات الأدب العالميّ. المترجم.

Twitter: @ketab_n

مذ كنت طفلاً عرفت الشرفات تغييرات أقلّ من الأماكن الأُخرى، لكنّ ذلك ليس هو سبب قربها إليّ، بل السبب بالأحرى هو السلوى الكامنة في عدم إمكانِ سكناها، بالنسبة لمن لم يعد باستطاعته الحصول على مأوى. ففيها يصل السكن البرلينيّ إلى حدوده. برلين، إله المدينة ذاته يبدأ فيها. يبقى هناك حاضراً بحيث لا يصبح بإمكان أيّ شيء عابر أن ينافسه على مكانته. في حِماه يلتئم الزمان مع المكان. كلاهما يتكدّس عند قدميه. لكنّ الطفل الذي كان ذات مرّة جزءاً من هذا الرباط، يقيم في شرفته محاطاً بهذه المجموعة وكأنّه في ضريح أُعدّ له خصّيصاً من زمن بعيد.

Twitter: @ketab_n

البانوراما القيصرية

كان من عوامل الجذب الكبرى لصوَر الرحلات التي يجدها المرء في البانوراما القيصرية، أنّه لم يكن مهمّاً أين يبدأ المرء جولته. فنظراً لأنّ لشاشة العرض المزوّدة بمكانٍ للجلوس شكلاً دائرياً، كان المرء يمرّ بكلّ محطّات الرحلة، ويرى كلّ محطّة منها في بُعدها الباهت اللون عبر زوج من النوافذ. كان هناك دائماً مكان فارغ للجلوس. وخصوصاً قرب نهاية طفولتي عندما أدارت الموضة ظهرها للبانوراما القيصرية، وتعوّد المرء على القيام بهذه الجولات السياحية في صالة شبه خالية من الجمهور.

لم يكن في عرض البانوراما القيصرية تلك الموسيقى المصاحبة للأفلام التي تصيب المرء بالخدر أثناء الرحلة. لكنّ، وعلى ما بدا لي، فإنّ ثمة مؤثراً صوتيّاً بسيطاً لكنّه مشوّش، كان أقوى تأثيراً من تلك الموسيقى. كان هناك تلك الرنّة التي تصدر قبل انسلاخ الصورة بجلبة من المشهد لتخلّف بعدها فراغاً في البداية ثمّ تأتي الصورة التالية، وفي كلّ مرّة ترنّ فيها تغشى حسرةُ الفراق الجبالَ حتّى سفوحها والمدن بنوافذها البرّاقة ومحطّات القطار بدخانها الأصفر وتلال الكروم حتّى أصفر ورقة. ولقد تولّدت عندي قناعة بأنّ من المستحيل أن تكون زيارتي تلك كافية لاستيعاب روعة المشهد، وهكذا تولّدت لديّ نيّة لم تتحقّق قطّ في أن آتي إلى البانوراما في اليوم التالي. لكنّ قبل أن أعقد العزم على ذلك، كان جهاز العرض الذي تفصلني عنه الألواح الخشبية يهتزّ والصورة تميل في إطارها لتختفي سريعاً من أمام ناظري إلى جهة اليسار.

Twitter: @ketab_n

الفنون التي استمرّت هنا انقرضت في القرن العشرين. كانت في بداياته قد وجدت في الأطفال جمهورها الأخير. لم تكن العوالم البعيدة غريبة عنها. وقد ورد ألاّ يكون الحنين الذي توقظه هذه العوالم نابعاً من كونها مجهولة بل من كونها مألوفة. وهكذا أردت أن أقنع نفسي في عصر يوم ما أثناء وقوفي أمام شريحة ضوئية لمدينة أيكس الفرنسية، بأنّني لعبتُ ذات يوم على أحجار ذلك الرصيف الذي تحميه أشجار الدلب في طريق ميرابو.

وفي حالٍ أمطرتُ كنت لا أبقى في الخارج أمام كتالوغ الصور الخمسين، بل أدخل إلى عمق الصورة وأجد في الخلجان ونخيل جوز الهند الضوء نفسه الذي كان يضيء مكتبي مساءً أثناء إنجازي للواجبات المدرسية، إلاّ إذا تسبّب عطل مفاجئ في الإضاءة في فقدان المشهد لألوانه. عندئذ كان يبدو ساكناً تحت سماء رمادية. وكنت أتخيّل أنّني لا يزال بإمكاني سماع صوت الريح والأجراس، يكفي لذلك أن أنتبه بشكل أفضل.

Twitter: @ketab_n

عمود النصر

كان ينتصب في الميدان الواسع كتاريخ مكتوب بالأحمر على رزنامة الحائط. وبالتالي كان ينبغي على المرء أن يزيله بعد مرور ذكرى معركة سيدان[1] مثلما تُنزع ورقة الرزنامة. عندما كنت صغيراً لم يكن بالإمكان تخيّل مرور عام بدون ذكرى معركة سيدان. بعد المعركة لم يتبقّ سوى الاستعراضات العسكرية. وعندما سار موكب العم كروغر[2] بعد هزيمته في حرب البوير في عام 1902 على امتداد شارع تاوتسيتن، كنت واقفاً مع مربّيتي ضمن صفوف الجماهير لنبدي إعجابنا بذلك السيّد الذي ارتدى قبعة أسطوانية مستلقياً على مقعد العربة المبطّن و«قد قاد جيشاً». هكذا كانوا يقولون عنه. لقد بدا ذلك لي شيئاً عظيماً لكنّه ليس سليماً تماماً، فقد تراءى لي وكأنّ الرجل قد «قاد» خرتيتاً أو جملاً وهكذا حقّق مجده. ما الذي يمكن أن يأتي بخلاف ذلك بعد ذكرى سيدان؟ فبعد هزيمة الفرنسيين بدا وكأنّ تاريخ العالم قد غاص في قبره المجيد، وفوقه ارتفع هذا العمود شاهدةً له.

عندما كنت تلميذاً في الصفّ السابع، صعدتُ الدرجات الواسعة المؤدّية إلى قادة **جادّة النصر**، ومع ذلك لم أنشغل إلاّ بذينك التابعين اللذين توّجا الحائط الخلفيّ للمبنى الرخاميّ. كانا أقصر من قادتهما وكانت رؤيتهما مريحة للعينين. ومن بين الجميع كنت أحبّ الأسقف الذي يحمل

1- في الثاني من سبتمبر أيلول عام 1870 استسلمت القوات الفرنسية للقوات الألمانية بعد معركة سيدان وتحول هذا اليوم إلى عيد وطني بعد تأسيس الدولة الألمانية عام 1871. المترجم.

2- بول كروغر (1825-1904) سياسي جنوب-أفريقي من أصل ألماني، كان رئيساً لجنوب أفريقيا خلال حرب البوير وقد جاء إلى أوروبا في ذاك الوقت طلباً للعون لكنّه مات في النهاية في منفاه السويسري. المترجم.

Twitter: @ketab_n

الكاتدرائية في يده اليمنى ذات القفّاز.

لقد استطعت بناء كاتدرائية أكبر منها بالاستعانة بلعبة مكعّبات البناء. ومنذ ذاك الوقت صرت كلّما رأيت القدّيسة كاترينا أبحث عن عجلتها، وكلّما رأيت القديسة بارباره أبحث عن برجها[1].

لقد شرحوا لي من أين جاءت زينة عمود النصر وزخارفه، لكنّني لم أفهم بالضبط حقيقة ما جرى مع مواسير المدفع التي صُنع منها: هل كان الفرنسيون قد خاضوا الحرب بمدافع ذهبية أم أنّنا حوّلنا الذهب الذي أخذناه منهم إلى مدافع؟ ثمّة بهو أعمدة يلفّ قاعدة عمود النصر. لم أطأ أبداً هذا المكان الذي يغمره ضوء باهت ناتج عن انعكاس اللون الذهبيّ للوحات الجصّ الجدارية. كنت أخشى أن أجد هناك ما يمكن أن يذكّرني بصور كتاب وجدته ذات مرّة في صالون إحدى عمّاتي. كانت طبعة فخمة لـ «جحيم» دانتي. لقد بدا لي أنّ الأبطال الذين بزغ فجر مآثرهم في بهو الأعمدة هم في السرّ مثلهم مثل الجموع التي تلقى عقابها بأن تسوطها دوّامات الريح وتُفرس أجسادها في جذوع الأشجار الدامية وتُجمَّد داخل كتل جليدية. لهذا كان هذا البهو هو الجحيم، هو النقيض لأجواء النعمة التي تحيط بفكتوريا إلهة النصر المتألّقة في الأعالي. في بعض الأيام كان الناس يقفون في الأعلى[2]. وكانوا يبدون لي أمام السماء وكأنّهم محاطون بإطار أسود كشخوص رسوم القصّ واللصق.

1- القديسة كاترينا قديسة الإسكندرية، رمزها العجلة التي صنعت خصّيصاً لتمزيقها وقتلت بدلاً من ذلك معذّبيها، أمّا القديسة بارباره فرمزها البرج الذي حبسها أبوها فيه وتمكّنت بمعجزة من الفرار منه عندما أراد أبوها قتلها بعد معرفته بتحوّلها إلى المسيحية. المترجم.

2- يمكن الصعود إلى قمّة عمود النصر والإطلال منها على منتزه «تيرغارتن» الواسع وعلى الكثير من معالم المدينة التاريخية. المترجم.

Twitter: @ketab_n

أفما كنت آخذ المقصّ وعلبة الصمغ في يدي، بعد انتهائي من تركيبها، لكي أوزّع دمى مماثلة على الأبواب والأركان وأفاريز النوافذ؟ كان الناس في الضوء في الأعلى مخلوقات لنزوة النعيم المفاجئة تلك، يحيطهم يومٌ أحدٍ أبديّ. أم أنّه كان يومَ «سيدان» أبديّاً؟

Twitter: @ketab_n

ربّما يعود الأمر إلى تركيبة الجهاز أو إلى بنية الذاكرة. الأكيد هو أنّ صدى جلبة المكالمات الهاتفية الأولى يختلف عنه في مكالمات اليوم. لقد كانت تلك جلبة ليليّة. لم تعلنها ربّة فنّ، والليل الذي أتت منه كان هو الليل نفسه الذي يسبق أيّ ميلاد حقيقيّ، والصوت هو المولود الجديد الذي كان غافياً داخل أجهزة الهاتف. كان الهاتف هو أخي التوأم في كلّ يوم وكلّ ساعة. لقد شهدت كيف خلّف وراءه سنوات إذلاله الأولى، إذ إنّه عندما ذوت الثريّات وحاجز المدفأة ونخلة الحجرة وطاولة الجدار[1] ومناضد الصالة الصغيرة وإفريز النافذة البارزة، وماتت موتاً مؤكّداً، بعدما كانت في السابق تحتلّ مكانة بارزة في الصالة، أدار الجهاز ظهره للممرّ المظلم وكأنّه بطل أسطوريّ كان قد تُرك للموت في أخدود جبليّ، وانتقل بزهو ملكيّ إلى الغرف الأكثر إضاءة وإنارة والتي صار يسكنها الآن جيل جديد. ولهذا الجيل أصبح الهاتف هو السلوى في الوحدة، إذ كان يبرق لليائسين الذين يريدون مغادرة العالم بآخر بصيص أمل، ويشارك المهجورين أسرّتهم. الرنين الصاخب الذي كان ملائماً له في المنفى، صار مع انتظار الكلّ للمكالمة أقلّ دويّاً.

لا يعلم كثيرون ممّن يستخدمون الهاتف أيّ خراب سبّبه ظهوره في السابق في بيوت العائلات. الصوت الذي كان يرنّ بين الثانية والرابعة عصراً عندما يرغب أحد أصدقائي في التحدّث إليّ، كان بمثابة إنذار لا يهدّد قيلولة والديّ فحسب، بل ويهدّد أيضاً ذاك الزمن الذي اعتادا

1- تُدعى في بعض الأقطار العربيّة «كنسولة» وهي تسمية آتية من الفرنسيّة console . هي طاولة أو منضدة توضع لصق جدار، وتكون أحياناً بشكل نصف دائرة. المترجم.

Twitter: @ketab_n

فيه على هذه القيلولة.

كان الخلاف مع موظّفي تحويل المكالمات هو القاعدة، ناهيك عن التهديدات واللعنات التي كان يصبّها والدي على مصلحة الشكاوى. لكنّ سخطه وانفعاله الحقيقيّين كانا من نصيب ذراع التحريك الذي كان هو يديره لدقائق يكاد خلالها أن ينسى نفسه. كانت يده في تلك الأثناء درويشاً يغلبه الدوار. ساعتها كان قلبي ينبض بعنف، لتأكّدي في هذه الحالات أنّ الموظفة على الجهة الأُخرى من الخطّ مهدّدة بنيل ضربة، عقاباً على إهمالها.

خلال تلك الفترة كان الهاتف يقبع مشوَّهاً ومنبوذاً بين خزانة الملابس المتّسخة وعدّاد الغاز في إحدى زوايا الممرّ الخلفيّ، حيث ضاعف ضجيج رنينه من فزع سكّان البيت البرلينيّ. وعندما كنت أسيطر بجهد جهيد على حواسّي وأتمكّن بعد فترة من التلمّس وتحسّس الطريق عبر الممرّ المظلم من إسكات الجلبة، وأرفع السمّاعتين اللّتين لهما وزن ثُقالة الحديد وأحشر رأسي بينهما، أصبح حينها مستسلماً تماماً للصوت الذي يتحدّث. لم يكن أيّ شيء يخفّف من العنف الذي كان يخترقني به الصوت. كنت أعاني بلا حول ولا قوّة شاعراً بفقدان إحساسي بالزمن وبمقاصدي وواجباتي. ومثل الوسيط الروحيّ الذي يتبع ما يمليه عليه الصوت الذي يهيمن عليه من العالم الآخر، كنت أستسلم في طاعة لأوّل اقتراح يأتيني عبر الهاتف.

Twitter: @ketab_n

صيد الفراشات

بغضّ النظر عن بعض رحلات الصيف التي كنّا نقوم بها بين الحين والآخر، كنّا كلّ عام نقضي العطل السابقة على دخولي المدرسة في مصايف المنطقة المحيطة. وقد ظلّ الصندوق الواسع على حائط غرفة صباي يذكّر بتلك الفترة، إذ ضمّ البدايات الأولى لمجموعة فراشات كانت أقدمها واحدة اصطدتها في حديقة براوهاوسبيرغ. فراشة الملفوف الأبيض بحوافّ أجنحتها المقشّرة وفراشة الكبريت الأصفر بجناحيها الشديدي اللّمعان تستحضران لديّ ذكرى حماسة الصيد التي كانت تنتابني فتجذبني من طرق الحديقة المعتنى بها إلى الأحراش البرية التي كنت أواجه فيها بلا حول ولا قوّة مؤامرة الريح والروائح وأوراق الشجر والشمس من أجل طيران الفراشات.

كانت الفراشات ترفرف حول زهرة وتقف عليها. رافعاً الشبكة، كنت أتحيّن ظهور تأثير سحر الزهرة على الجناحين، وأن يُتمّ السّحر مفعوله. عندها ينزلق الجسم الرقيق جانباً بضربات أجنحة رهيفة ليظلّل زهرة أُخرى ويقف عليها أيضاً بلا حراك وبالطريقة نفسها يغادرها فجأة. عندما كانت فراشة السلحفاة الصغيرة أو عثّة أبي الهول –التي كان من السهل عليّ اصطيادها– تثير جنوني عبر تردّدها أو اهتزازها وتلكّؤها، كنت أتمنّى ساعتها أن أتحوّل إلى ضوء وهواء، لا لشيء إلاّ لكي أقترب من فريستي دون أن تلحظني وأتمكّن منها. وقد تحقّقت أمنيتي بالقدر الذي جعل كلّ حركة أو كلّ خفق للجناحين اللّذين أحدّق فيهما بلهفة يحرّكني ويدغدغني. وساد بيننا قانون الصيد القديم. كلّما سعيت للتماهي بكلّ جوارحي مع هذا الحيوان، وكلّما أصبحت من الداخل كالفراشة، أخذت هذه الفراشة في أفعالها لون القرار الإنسانيّ وكأنّ صيدها كان هو الثمن

Twitter: @ketab_n

الوحيد لاستعادة وجودي الإنسانيّ. لكنّ ما إن يتمّ الصيد حتّى يصبح الطريق من مسرح صيدي الناجح إلى المعسكر أكثر عناءً، هناك كان يوجد الأثير والقطن والإبر ذات الرؤوس الملوّنة والملاقط في علبة جمع العيّنات. كيف كان المكان يبدو وراء ظهري! الحشائش مثنيّة والزهور مدهوسة. أمّا الصيّاد نفسه فوهب جسده لشبكته وفوق كلّ ذلك الدمار والفظاظة والعنف، تقبع الفراشة الفزِعة مرتعشة ورغم ذلك خاشعة تماماً في إحدى ثنيات الشبكة. على تلك الطريق المضنية كانت روح من ينتظره الموت تسري في الصيّاد. آنئذ اكتسب بعض قوانين اللغة الأجنبية التي كانت الفراشة تتفاهم بها مع الزهرة أمام عينيه. رغبته في القتل صارت أقلّ، فيما أصبح تفاؤله أكبر بكثير.

الهواء الذي تهادت فيه تلك الفراشة في الماضي أصبح اليوم مشرّباً تماماً بكلمة لم تسمعها أذناي ولم تردّ على شفتيّ مطلقاً منذ عقود. لقد حفظت هذه الكلمة ما لا يمكن سبر غوره، وما تواجه به أسماءُ الطفولة الشخصَ البالغ. لقد تجلّت هذه الأسماء في ما هو مسكوت عنه لفترة طويلة. وهكذا تختلج عبر هواءٍ يعجّ بالفراشات كلمة «براوهاوسبرغ» التي تعني «جبل معمل البيرة». على هذا الجبل بالقرب من بوتسدام كان منزلنا الصيفيّ. لكنّ الاسم فقد كلّ ثقله ولم يعد له صلة مطلقاً بمعمل البيرة، وهو على كلّ حال جبل تحيطه الزرقة يرتفع في الصيف لكي يأويني أنا ووالديّ. وهكذا كان موقع بوتسدام طفولتي في هواء أزرق وكأنّ فراشات عباءة الحداد أو الأميرال أو الطاووس أو الأورورا قد نُثرت على لوحة ذات ميناء لامع من الليموج[1] تبرز منها شُرفات القدس وأسوارها على أرضية اللوحة الزرقاء الداكنة.

1- طلاء الليموج نسبة إلى المدينة الفرنسية التي تحمل الاسم نفسه وتشتهر بصنع هذه اللوحات المصقولة والخزف أيضاً. المترجم.

Twitter: @ketab_n

ألاّ تجد طريقك في مدينة ما لا يعني الكثير، أمّا أن تتوه في مدينة مثلما يتوه المرء في غابة، فذلك يحتاج إلى تدريب. إذ لا بدّ لأسماء الشوارع أن تتحدّث إلى التائه مثل قرقعة أغصان جافّة وأن تعكس له الشوارع الصغيرة في قلب المدينة أوقات اليوم بوضوح مثلما يعكسها وادٍ جبليّ. لقد تعلّمت هذا الفن متأخّراً: وقد حقّق ذلك حلماً كانت آثاره الأولى متاهات على أوراق النشّاف في كرّاساتي. لا ليست الأولى، فقبلها كان ثمة أثر دام أكثر من غيره. كان الطريق إلى هذه المتاهة التي لم تفتقر إلى آريان[1] تخصّها، يمرّ عبر جسر بندلر الذي كان تقوّسه اللطيف هو أوّل تلّة بالنسبة لي. غير بعيد عن سفحها كان الهدف: فريدريش فيلهلم والملكة لويزه[2]. لقد انتصبا وسط أحواض الزهور على قاعدتيهما الدائريّتين وكأنّ الانحناءات السحرية التي خطّها أمامهما جدول مائيّ في الرمل قد سمّرتهما في مكانهما. لكنّ اهتمامي كان ينصبّ على قاعدَتي التمثالين[3] أكثر ممّا على العاهلين، لأنّ ما كان يجري على القاعدتين رغم عدم وضوح سياقه كان أقرب لي من حيث المكان.

لقد أدركت دائماً أنّ في هذه المتاهة شيئاً مميّزاً يتبدّى من خلال هذه الساحة الواسعة العادية التي لا تشي إطلاقاً بأنّه على بعد خطوات

1- آريان (أريادنه باليونانيّة) هي في الميثولوجيا الإغريقية ابنة الملك مينوس، ملك كريت، التي ساعدت ثيسوس في التغلّب على المينوتوروس بأن أعطته خيطاً لكي يعرف طريق الخروج من المتاهة التي يسكنها الوحش، فصار التعبير «خيط آريان» مثلاً. المترجم.

2- ملك بروسيا وملكتها في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، شهد عهدهما هزيمة بروسيا أمام جحافل نابليون. المترجم.

3- على قاعدتي التمثال توجد نقوش بارزة لرجال ونساء وأطفال في رغد وحبور وهو ما يعكس حبّ الحاكمين للسلام وأيضاً أجواء الفرح التي تعمّ المنتزه. المترجم.

Twitter: @ketab_n

قليلة من طريق عربات الأجرة والمركبات، يفضو الجزء الأكثر غرابة في الحديقة.

لقد تلقّيت مبكّراً إشارة بذلك. فهنا تحديداً أو غير بعيد عن هنا، كان معسكر آريان تلك التي خبرتُ في قربها وللمرّة الأولى شيئاً لم أعرف له اسماً إلاّ لاحقاً، إنّه الحبّ. للأسف تظهر «الآنسة»[1] عند نبع الحديقة وتلقي عليه بظلّها البارد. وهكذا كانت تلك الحديقة التي كانت تبدو مفتوحة للأطفال أكثر من أيّ حديقة أُخرى مشوّهة في نظري بفعل صعوبات وتعقيدات. نادراً ما تمكّنت من التفرقة بين أنواع الأسماك في بركة الأسماك الذهبية. وكم انطوى اسم جادّة «صيّادي البلاط»[2] على وعود كثيرة لم يفِ بها وكم من مرّة بحثت دون جدوى عن تلك الشجيرات التي كانت تخبّئ في وسطها كشكاً ذا أبراج صغيرة حمراء وبيضاء وزرقاء، على طراز لعبة مكعّبات البناء. وكم كان حبّي للأمير لويس فرديناند[3] يتجدّد كلّ ربيع بلا أمل، فعند قدميه كانت تنبت أولى زهور الزعفران والنرجس. وكان ثمّة جدول مائيّ يفصلني عنها ويجعلها بعيدة المنال وكأنّها تقبع تحت ناقوس زجاجيّ. لا بدّ لكلّ ما هو نبيل أن يرقد بهذا البرود وسط الجمال، هكذا أدركتُ لماذا كان على لويزه فون لاندو زميلتي في المدرسة أن تسكن حتّى وفاتها على ضفة لوتزو أمام هذه الأحراش الصغيرة التي كانت زهراتها تتندّى من ماء القناة.

اكتشفتُ لاحقاً أركاناً جديدة من الحديقة كما سمعت عن أركان أُخرى. مع ذلك لم يمكن لفتاة ولا لتجربة ولا لكتاب إمدادي بجديد في هذا الشأن.

1- المقصود على الأرجح هو زميلته لويزه فون لانداو التي ترد في السطور التالية وظلّها البارد، له علاقة بوفاتها المبكرة، يرد ذكرها أيضاً في النصّ «أحجيتان»، انظر أدناه. المترجم.

2- Hofjaegerallee واحدة من الطرق الرئيسية المحيطة بمنتزه تيرغارتن. المترجم.

3- الأمير لويس فرديناند (1772-1806) هو ابن أخي الملك فريدريش الثالث وقد شارك في الحروب ضدّ نابليون، كما اشتهر أيضاً بولعه بالموسيقى وتأليفه لها. المترجم.

Twitter: @ketab_n

وهكذا وبعد ذلك بثلاثين عاماً عندما قبل رجل خبير بالمدينة -فلاّح برليني[1]- بالعودة معي بعد غياب مشترك طويل عنها، شقّت خطاه في هذه الحديقة أخاديد نثرَ فيها بذور الصمت. لقد تقدّم عبر طرقاتها وبدا له كلّ طريق منها متحدّراً ووعراً. وقاده لأسفل، إن لم يكن لأمّهات الوجود كلّه[2] فبالتأكيد لأمّهات وجود هذه الحديقة. كانت خطواته على الأسفلت تصدر صدىً. ضوء المصباح الغازيّ الذي سطع على الأسفلت ألقى بضوء ملتبس على هذه الأرض. درجات السلّم الصغيرة والمداخل ذات الأعمدة والأفاريز والحلى المعمارية التي تزيّن فيلّات منطقة تيرغارتن -للمرّة الأولى نفي هذه التفاصيل حقّها. خصوصاً آبار سلالم[3] البنايات التي ظلّت بنوافذها الزجاجية على حالتها القديمة، رغم تغيّر الكثير في الداخل المسكون. لا زلت أذكر هذه الأبيات التي كانت بعد المدرسة تملأ هذه البرهات بين دقّات قلبي، عندما كنت أتوقّف للاستراحة أثناء صعود السلّم. كانت تبزغ لي عبر زجاج النافذة، حيث يبرز خارجها تمثال امرأة تسبح في الأثير كعذارء كنيسة السستين وتحمل في يدها إكليلاً. رفعت بإبهامي حمّالات حقيبتي عن كتفي وقرأت: «العمل زينة المواطن/ والبركة مكافأة الجهد». في الأسفل انغلق باب البناية بتنهيدة واحدة مثلما يهوي شبحٌ عائداً إلى القبر. ربّما كانت تمطر في الخارج. بقيت إحدى ألواح النافذة الملوّنة مفتوحة وعلى إيقاع قطرات المطر واصلت صعود السلّم.

1- المقصود هنا هو الكاتب والمترجم فرانتس هيسل (1880-1941) الذي اشترك مع بنيامين في ترجمة «البحث عن الزمن المفقود» لمارسيل بروست، وقد ألف هيسل عام 1929 كتاباً بعنوان «تجوال في برلين» كتب بنيامين عنه مقالاً نقدياً بعنوان «عودة المتسكع»، ووصفه له هنا بالفلاّح البرليني فيه تلميح لرواية لوي أراغون «فلاّح باريس». المترجم.

2- هنا تلميح إلى مشهد في مسرحية «فاوست» لغوته، يطلب فيه فاوست من ميفستوفيليس أن يستدعي له هيلينا أنموذج الجمال الأنثويّ في الميثولوجيا اليونانية، فيقول له ميفستوفيليس إنّ على فاوست أن ينزل إلى أمّهات (إلهات) العالم السفلي من أجل أن يتحقّق طلبه. المترجم.

3- بئر السلّم أو مسقط الدّرج هي تسمية مجازيّة للرقعة الفارغة الكائنة أسفل السّلالم داخل البيوت، في شكل مثلّث، والتي تُحوّل أحياناً إلى مستودع صغير يُسوَّر بجدار خشبيّ أو زجاجيّ. المترجم.

Twitter: @ketab_n

من بين تماثيل الكارياتيد والأطلس والأطفال المجنّحين والإلهة بومونا[1] التي

كانت تنظر إليّ في الماضي من علٍ، كانت تلك التماثيل المغبرّة التي تسكن عند عتبات البيوت لتحرس بذلك خطوة الداخل إلى الوجود أو إلى البيت، هي الأقرب إليّ، فهي تتقن الانتظار، لا فرقَ إن كانت تنتظر غريباً أو تنتظر عودة الآلهة القديمة أو الطفل الذي مرّ قبل ثلاثين عاماً بحقيبته المدرسية من أمام أقدامها. فتحتَ قيادتها أصبح الغرب البرلينيّ القديم أثريّاً، ومنه تهبّ الريح الغربية التي تساعد البحّارة بقواربهم المحمّلة بتفّاحات الهسبريد[2] للانسياب ببطء في اتجاه قناة لاندفير، لكي ترسو بعد ذلك عند جسر هرفل. ومجدّداً مثلما كان الحال في طفولتي كان للهيدرا ولأسد نيميا مكان في البرية المحيطة بميدان «النجم الكبير»[3].

1- هي إلهة أشجار الفاكهة عند الرومان. المترجم.

2- هي تماثيل أو رسوم صغيرة تصوّر التفّاحات الذهبية لحدائق الهسبريد المذكورة في الميثولوجيا الإغريقيّة. والهسبريد هنّ حوريّات الغروب، ولدن من قران العملاق أطلس وهسبريس إلهة الغروب. المترجم.

3- هو الميدان الذي يوجد فيه حاليّاً عمود النصر ويحيط به منتزه تيرغارتن. المترجم.

Twitter: @ketab_n

وصول متأخّر

بسببي بدت ساعة فناء المدرسة معطوبة. كانت عقاربها تشير إلى «متأخر جدّاً». وفي الممرّ تناهت من الفصول همهمة مشاورات سرّية. لقد جمعت الصداقة بين التلاميذ والمدرّسين وراء تلك الجدران. أو أنّ الصمت خيّم على الجميع وكأنّهم ينتظرون أحداً. لمست مقبض باب قاعة الدروس بصوت غير مسموع. غمرت الشمس البقعة التي كنت وقفت فيها. لقد أفسدتُ يومَي الصحو بدخولي. لم يبدُ أنّ أحداً قد عرفني، أو حتّى رآني. ومثلما احتفظ الشيطان بظلّ بيتر شليمهيل[1]، امتنع المعلّم عن ذكر اسمي ضمن قائمة الحضور عند بداية الحصّة. ولم يأتِ عليّ الدور في الإجابة. عملت بهدوء حتّى دقّ الجرس، لكنّ كدحي لم يكن مغبوطاً.

1- «بيتر شليمهيل» أو «الرجل الذي فقد ظلّه» هو عنوان رواية شهيرة للكاتب الفرنسيّ الأصل أدلبير فون شاميسو (1781-1838) الذي عاش في ألمانيا وباسمه دُشّنت أوّل جائزة للكتّاب الألمان من أصول أجنبية. المترجم.

Twitter: @ketab_n

كنت أحصل من مكتبة المدرسة على أكثر الكتب المحبّبة إليّ. في الصفوف الدراسية السابقة كانت تُوزّع علينا. ينادي المعلّم اسمي ويأخذ الكتاب طريقه عبر مقاعد الطلبة: ينقله الواحد للآخر أو ينتقل سابحاً فوق الرؤوس حتّى يصل إليّ، إذ كنتُ التلميذ الذي رفع يده. تظلّ آثار الأصابع التي تناقلته ملتصقة بأوراقه. والشريط الذي يثبت ملزمات الكتاب من الظهر ويبرز من أعلى ومن أسفل كان متّسخاً. كان الظهر بالأخصّ يتحمّل الكثير، لذا كان يحدث أن تتباعد دفّتا الكتاب إحداهما عن الأُخرى وتشكّل حوافّ متن الكتاب درجات وشرفات صغيرة. مثل صيف متأخّر على جذوع الأشجار، كانت تعلّق على أوراقه خيوط واهية لشبكة كنت قد أوقعت نفسي في أحبولتها ذات يوم أثناء تعلّمي القراءة.

كان الكتاب موضوعاً على مائدة عالية جدّاً. وأثناء القراءة كنت أسدّ أذنيّ. ألم يحدث في يوم من الأيّام أن استمعتُ لحكاية بلا صوت؟ بالطبع لم يقصّها والدي، لكنّ أحياناً في الشتاء عندما كنت أقف أمام النافذة في الحجرة الدافئة، كانت العاصفة الثلجية تحكي لي بلا صوت. ما حكته لي لم أتمكن قطّ من فهمه، لأنّ الجديد كان يقحم نفسه بكثافة واستمرار بين المعارف القديمة. فما أكاد أعقد صداقة وطيدة مع مجموعة من ندف الثلج، إلاّ وأدرك أنّها تركتني لمجموعة أُخرى، اخترقتها فجأة. ثمّ جاءت اللحظة لتتبع القصص التي كانت قد أفلتت منّي أمام النافذة، وسط عاصفة الحروف. البلدان البعيدة التي رأيتها في هذه القصص تعبث بثقة مع بعضها البعض مثلما تفعل الندف. ولأنّ البِعاد عند هطول الثلج لا

Twitter: @ketab_n

يقود إلى العالم الخارجيّ بل إلى الداخل، كانت المسافة على هذا النحو بين بابل وبغداد وبين عكّا وألاسكا وبين تومورسو وترانسفال في داخلي أنا. أجواء مطالعات العطلة اللطيفة التي تخلّلت هذه الأماكن مسّت بالدم والمخاطر شفاف قلبي بصورة لا تقاوم، بحيث ظل وفيّاً على الدوام للكتب المهترئة من كثرة الاستعمال.

أم أنّ هذا الوفاء كان للكتب الأقدم التي لا يمكن العثور عليها؟ تلك الكتب الرائعة التي لم تتح لي رؤيتها ثانية إلاّ مرّة واحدة في الحلم؟ كيف كانت عناوينها؟ لم أكن أعرف سوى أنّ هذه الكتب التي لن أستطيع العثور عليها ثانية أبداً، قد اختفت منذ وقت طويل. لكنّها الآن داخل الخزانة التي أدركتُ خلال صحوي أنني لم أرَها من قبل مطلقاً. في الحلم بدت لي قديمة ومعروفة. لم تكن الكتب مصفوفة رأسيّاً داخل الخزانة بل موضوعة داخلها بشكل أفقيّ، وتحديداً في ركن التقلّبات الجويّة. كان الجوّ عاصفاً داخل الكتب. وكان فتْح أيّ واحد منها سيضعني في الرحم التي يشكّل فيها نصّ متقلّب وكئيب سحابة حبلى بالألوان. كانت ألواناً ساخنة وسريعة الزوال، تتحوّل دائماً إلى لون أرجوانيّ يبدو أنّ مصدره أحشاء حيوان مذبوح. فاقت العناوين كلّ وصف وكانت زاخرة بالمعاني مثلها مثل هذا الأرجوانيّ المحرّم، وتراءى لي أن كلّ واحد منها أكثر غرابة وألفة بالنسبة لي من سابقه. لكنّ قبل أن أتمكّن من ضمان الحصول على أوّلها كنت أستيقظ من النوم، دون أن أكون قد مسست في الحلم أيضاً أيّاً من كتب الصبيان القديمة.

Twitter: @ketab_n

الجنيّة التي تضمن تحقيق أمنية ما، موجودة لدى الجميع. ولكنّ قليلون هم من يستطيعون تذكّر أمنيتهم، وقليلون أيضاً من يستطيعون لاحقاً وخلال حياتهم إدراك أنّ أمنيتهم قد تحقّقت. أعرف أمنيتي التي تحقّقت ولا أريد القول إنّها كانت أكثر حذقاً من تلك التي يتمنّاها أطفال الحكايات الخيالية. لقد تشكّلت داخلي مع المصباح، الذي كان مع اقترابه من سريري في الصباح الشتويّ الباكر، في الساعة السادسة والنصف، يلقي بظلّ مربّيتي على غطاء السرير. تُوقد شعلة في الفرن. وسرعان ما تتوجّه هذه الشعلة التي بدت محشورة في درج صغير جدّاً لا تكاد تستطيع التحرّك داخله من كثرة الفحم، بالنظر إليّ. ومع ذلك يبدأ شيء هائل في التشكّل هناك بالقرب منّي، شيء أصغر منّي ويتطلّب من الخادمة أن تنحني له أكثر ممّا تنحني لي. وعندما يكتمل اشتعال الفرن، تضع الخادمة تفّاحة لشيِّها في داخله. وسرعان ما يعكس وميض أحمر شبكة باب الموقد على الأرض. ومن فرط تعبي كان يتراءى لي أنّ ذلك المنظر كان كافياً لليوم كلّه. هكذا كانت الحال دائماً في تلك الساعة، وحده صوت المربّية كان هو الشيء الذي يشوّش على إتمام الأشياء التي اعتاد الصباح الشتويّ أن يعهد إليّ بها في غرفتي. لم يكن مصراع النافذة قد فُتح بعد، عندئذ كنت أزيح للمرّة الأولى باب الفرن جانباً لأتفحّص وضع التفّاحة داخله. أحياناً لا يكون تغيير يُذكر قد طرأ بعد على نكهتها. أصبر حتّى أشتمّ الرائحة الزكيّة الفائرة الآتية من إحدى خلايا النهار الشتويّ أكثر عمقاً وسريّة حتّى من تلك التي ينبعث منها عبق الشجرة في ليلة عيد الميلاد. رقدت الثمرة الداكنة الدافئة داخل الفرن، تلك التفاحة التي

Twitter: @ketab_n

بدت مألوفة رغم تغيّرها، مثل شخص أعرفه جيّداً، كان مسافراً في رحلة ثمّ جاء لزيارتي. كانت رحلة عبر أرض حرارة الفرن المظلمة التي اكتسبت منها التفاحة نكهة كلّ الأشياء التي يهيّئها اليوم لي. ولهذا كان من الغريب أيضاً أنّه كلّما أدفأتُ يدي في خدَّي التفاحة اللاّمعين، كان يعتريني تردّد عندما أنوي قضمها. لقد شعرت بأنّ المعرفة العابرة التي كانت تحملها في رائحتها يمكن أن تتلاشى في طريقها عبر لساني. هذه المعرفة كانت أحياناً مشجّعة جدّاً لدرجة أنّها كانت تهوّن عليّ الطريق إلى المدرسة. عندما أصل إلى هناك، يعود التعب الذي تراءى في البداية أنّه زال، مضاعفاً عشر مرات. ومعه هذه الأمنية بأن أحصل على كفايتي من النوم. ربّما أكون قد تمنّيت ذلك ألف مرّة وتحقّق فعلاً لاحقاً. لكنّني احتجت لوقت طويل حتّى أدرك أنّه في تحقّق هذه الأمنية يتبدّد في كلّ مرّة هذا الأمل الذي يحدوني في الحصول على وظيفة ولقمة عيش آمنة.

Twitter: @ketab_n

عند تقاطع شارع شتيغليتس وشارع غنتين

فيما مضى كان للخالات اللائي لم يعدن يفارقن بيوتهنّ وجود بارز في كلّ طفولة. كنّ دائماً في انتظارنا عندما نأتي مع أمّنا لزيارتهنّ، ليرحّبن بنا دائماً تحت القبّعة السوداء ذاتها، وبالفستان الحريريّ ذاته، من المقعد ذي المسند ذاته وعبر النافذة البارزة نفسها. مثل جنّيات يسحرن وادياً بأكمله دون الهبوط إليه، كنّ يتحكّمن بصفوف كاملة من الشوارع دون أن يظهرن فيها. ومن بين هاته الكائنات الخالة ليمان. يمنحها اسمها الألمانيّ الشماليّ الأصيل الحقَّ في تبوّؤ مكانها طوال جيل كامل داخل النافذة البارزة التي يتلاقى تحتها شارع شتيغليتس وشارع غنتين. إنّها واحدة من زوايا الشوارع التي لم تمسسها تحوّلات الأعوام الثلاثين الأخيرة إلاّ قليلاً. كلّ ما حدث خلال تلك الفترة هو أنّ الغطاء الذي حجبها في طفولتي قد سقط الآن. ففي الماضي لم أكن أحتسب أنّ اسم الشارع منسوب إلى منطقة Steglitz، بل إلى Stieglitz أي طائر الحسّون. أوَ لم تكن الخالة تجلس في قفصها مثل طائر يستطيع الكلام؟ وفي كلّ مرّة وطأتُ فيها هذا القفص كان ممتلئاً بزقزقة هذا الطائر الصغير الأسود الذي طار فوق كلّ أعشاش منطقة براندنبورغ وضياعها حيث أقامت عائلته الكبيرة في الماضي في أماكن متفرّقة منها، وحفظ في ذاكرته أسماء القرى والأقارب. وكثيراً ما كان اسم القرية يتطابق تماماً والاسم العائليّ لهؤلاء الأقارب. كانت الخالة على علم بصلات المصاهرة في عائلات شونفلايس ورافيتشر ولاندسبيرغ ولينذنهايم وستارغارد، كما كانت تعرف محالّ إقامة هؤلاء جميعاً وتعرف أفراحهم وأتراحهم، وكلّهم استقرّوا في الماضي كتجّار للماشية والحبوب في منطقتَي براندنبورغ

Twitter: @ketab_n

وميكلنبورغ. لكنّ أبناء هذه العائلات وربّما أحفادها استقرّوا الآن في غرب برلين، في شوارع تحمل أسماء جنرالات بروسيّين، وأحياناً أيضاً أسماء المدن الصغيرة التي انتقلوا منها إلى هنا. في سنواتي اللاحقة وعندما كان القطار السريع يمرق عبر مثل هذه القرى والبقاع البعيدة، كنت أرى الأكواخ والضياع ومستودعات الحبوب والأسقُف المحدّبة من على سدّة القطار وأتساءل: أليس من المحتمل أن تكون هذه الأماكن بالذات هي التي خلّف والِدا هذه العجائز اللائي كنت أزور في طفولتي بيتهنّ ظلالها وراءهما قبل زمن بعيد؟

عند وصولي كان يستقبلني صوت واهن وهشّ كالزجاج متمنّياً لي يوماً سعيداً. مع ذلك لم يكن ثمة صوت آخر مجدول بمثْل هذه الرهافة ومضبوط تماماً مع ما كان ينتظرني مثل صوت الخالة ليمان. فتحديداً بمجرّد أن أدخل تهتمّ هي بأن يضعوا لي المكعّب الزجاجيّ الكبير الذي يضمّ في داخله مجسَّماً كاملاً لمنجم فيه عمّالٌ تعدين وحفْر ورؤساءُ عمّالٍ بعرباتِ جرّ ومطارق ومصابيح يتحرّكون بدقّة نوابضِ ساعة. هذه اللعبة، لو جاز لنا أن نطلق عليها هذا الاسم، تنتمي إلى عصر كان لا يضنّ أيضاً على طفل البيت البرجوازيّ الفنيّ بإلقاء نظرة على أماكن العمل ومكائنها، ليس فقط لأنّ المنجم يُخرج ثروات تمّ الحصول عليها بالعمل المضني ولكنّه يُخرج من عروقه أيضاً هذا الوهج الفضيّ الذي بهر أبصار كتّاب البيدرماير[1] كما نرى في أعمال جون بول ونوفاليس

1- البيدرماير ثقافة برجوازية محافظة انتشرت في الفترة ما بين 1815 و1848، وهي تعلي من شأن الحياة الأسرية المنزلية ومن قيم الاجتهاد والإخلاص والأمانة والتواضع والإحساس بالالتزام، لكنّ ضيق الأفق يعدّ أيضاً من سماتها الأساسية. كما أنّ البيدرماير هو طراز في الأثاث والموضة يعود للفترة ذاتها ويتّسم بالبساطة. المترجم.

Twitter: @ketab_n

ولودفيغ تيك وزكرياس فرنر[1].

كان ذلك البيت ذو النافذة البارزة محميّاً بشكل مضاعف، كما كانت الحال بالنسبة لمثل تلك الأماكن التي تحوي داخلها أشياء ثمينة. بعد بوّابة البناية، وعلى الناحية اليسرى من المدخل كان يوجد باب المنزل الداكن اللون وجرسه. وعندما كان هذا الباب ينفتح، يقود سلّم حادّ الانحدار ومنهك للأنفاس إلى أعلى وهو الشيء الذي لم أجد له مثيلاً إلاّ في بيوت الفلاّحين. في الضوء الكابي للمصباح الغازي الذي كان يأتي من أعلى، وقفت خادمة عجوز، في حمايتها كنت أخطو فوق عتبة البيت الثانية داخلاً إلى ردهة البيت الكئيب. لكنّني لم أكن أتخيّله أبداً بدون واحدة من أولئك الخادمات العجائز. لأنّهنّ كنّ يشاركن سيّدتهنّ كنزاً، وإن يكن عبارة عن ذكريات مسكوت عنها، ويتفاهمن معها لا فقط بالكلام، بل كنّ قادرات أيضاً على التحدّث باسمها بكلّ احترام أمام كلّ غريب، ولقد كنتُ أسهلَ مهمّة لهنّ، لا سيّما وأنّهنّ كنّ غالباً ما يفهمنني أكثر من سيّدتهنّ. ولذا كنت بدوري أنظر إليهنّ بإعجاب. كنّ في الأغلب الأعمّ أقوى بنياناً من سيّدتهنّ وكان يحدث ألاّ يجذبني الصالون كثيراً برغم المنجم والشوكولاتة، مثلما تجذبني الردهة حيث كانت الخادمة العجوز تنزع عنّي معطفي الصغير عند وصولي وكأنّها تزيل عنّي حملاً وعند ذهابي كانت تضغط الطاقية على جبهتي وكأنّها كانت تريد مباركتي.

1- اشتهر هؤلاء بكتابة نصوص تلعب المناجم فيها دوراً أساسيّاً. المترجم.

Twitter: @ketab_n

أحجيتان

بعض من مجموعة بطاقاتي البريدية ظلّ قفاه المكتوب عالقاً في ذاكرتي بوضوح أكثر من صورته. كانت تلك البطاقات تحمل توقيعاً بخطّ جميل ومقروء: هيلينا بوفال. كان هذا هو اسم معلّمتي. الباء التي يبدأ بها لقبها ترمز للبراعة وما تتطلّبه من دقّة والتزام. والفاء للفطنة في تجنّب الأخطاء والاجتهاد والإحساس بالواجب، أما بخصوص لام النهاية فهي تجسيد للّطف والوداعة وللهفة المعرفة التي تستحقّ الثناء. وبهذا كان من الممكن لهذا التوقيع لو أنّه مكوّن من حروف ساكنة فقط كما في اللغات الساميّة ألاّ يكون مستقَرّاً للكمال الخطيّ فحسب، بل أن يكون أصلاً لكلّ الفضائل.

شارك في حلقة درس الآنسة بوفال أولاد وبنات من أرقى البيوت البرجوازية في غرب برلين. لكنّ أحداً لم ينتبه بشكل خاصّ إلى إمكانِ أن تضلّ ابنة إحدى أُسَر النبالة طريقها فتلتحق بالوسط البرجوازيّ. كان اسمها لويزه فون لانداو. سرعان ما افتتنتُ بالاسم، وظلّ ليومنا هذا حيّاً في ذاكرتي ولكنّ ليس لهذا السبب. إذ كان أوّل اسم لشخص في عمري يضفي عليه الموت نبرته. حدث ذلك بعدما كبرت وتجاوزت الحلقة الدراسية وصرت في الصفّ الخامس. عندما كنت أمرّ آنذاك بضفة لوتزو كنت أبحث دائماً بنظراتي عن بيتها. وللصدفة كان ثمة حديقة صغيرة تقع على الضفة الأُخرى من القناة ويعُلق فيها الماء. ومع الوقت نسجت ذلك في داخلي مع الاسم المحبوب، حتّى صارت لديّ في نهاية المطاف قناعة بأنّ حوض الزهور الذي يظهر في بهاء على الجانب الآخر هو ضريح الراحلة الصغيرة.

Twitter: @ketab_n

حلّ الأستاذ كنوخه محلّ السيّدة بوفال. وصرت في المدرسة الثانوية. كنت أنفر ممّا يحدث داخل قاعة الدروس. لكنّ ذكرياتي عن الأستاذ كنوخه ليست مرتبطة بمحاكماته العقابية التي كان يعقدها لنا، بل بالأحرى بوصفه عرّافاً يرى المستقبل.كنّا في درس الغناء، وتدرّبنا على أغنية الفرسان من مسرحية «فالنشتاين»[1] الملحمية: «هيّا يا رفاق/ على الأفراس على الأفراس/ إلى المعركة إلى الحرية/ في المعركة تبقى للرجل قيمته/ حيث يُوزن القلب أيضاً». أراد الأستاذ كنوخه أن يعرف من التلاميذ معنى البيت الأخير. وبالطبع لم يستطع أحد إعطاء إجابة. وبدا أنّ ذلك كان ملائماً للأستاذ كنوخه، فأوضح: «ستفهمون ذلك عندما تكبرون».

في الماضي بدت لي ضفة البلوغ والنضج بعيدة عن ضفتي، يفصلها التيّار النهريّ لسنوات عديدة، مثل تلك الضفة من القناة التي يبدو منها حوض الزهور الذي لم أطأه قطّ أثناء التنزّه بصحبة مربّيتي. لاحقاً عندما لم يعد ثمة من يملي عليّ طريقي وفهمت «أغنية الفرسان» كنت أمرّ أحياناً بالقرب جدّاً من حوض الزهور الواقع على قناة لاندفير. لكنّ بدا أنّه نادراً ما يزهر. ومن الاسم الذي تمسّكنا به سويّةً في السابق، لم يعرف الحوض سوى هذا البيت من أغنية الفرسان، الآن حيث فهمتُه متضمّناً المعنى الذي وعدنا به الأستاذ كنوخه في حصّة الغناء. القبر الفارغ والقلب الموزون أحجيتان ستظلّ الحياة مدينة لي بحلّهما.

1- مسرحية من ثلاثة أجزاء لفريدريش شيلر عن القائد العسكري فالنشتاين الذي ذاع صيته خلال حرب الثلاثين عاماً. المترجم.

Twitter: @ketab_n

السوق المسقوف
Markthalle

أوّلاً لم يكن ثمة من يعتقد أنّ اسمه Markt-Halle[1]، كلاّ، فالناس كانوا ينطقونه «Mark-Thalle» ومثلما كانت هاتان الكلمتان تمتزجان بحيث لم يحتفظ أيّ منهما بشيء من المعنى الأصليّ لهما، كانت تمتزج لديّ مع اعتيادي دخولَ هذا السوق كلّ الصور التي كان يتيحها بحيث لم يعد لأيّ منها صلة بالمفهوم الأصليّ للشراء والبيع. فإذا ما تجاوز المرء المدخل بأبوابه الدوّارة الثقيلة ذات النوابض القوية تعلّق النظرات الأولى ببلاطات الأرضية الزلقة بفعل ماء السمك أو ماء التنظيف، ويمكن للمرء أن ينزلق بسهولة على جزرة أو على ورقة خسّ. خلف أكشاك مسوّرة بالأسلاك، على كلّ منها رقم، تتربّع النساء الثقيلات الحركة، كاهنات الإلهة سيريس[2] بخيراتها المطروحة للبيع، نساء سوقٍ كلّ ثمارِ الحقول والأشجار وكلّ الطيور والأسماك والثدييّات القابلة للأكل، سمسارات، ماردات من الصوف المغزول لا يمكن المساس بهنّ، يتواصلن مع بعضهنّ البعض من كشك لكشك سواء أكان ذلك عبر بريق زرّ من أزرارهنّ الكبيرة أو بخبطة يد على التنّورة أو بزفرة تنتفخ معها أثداؤهن. ألم يسدّ هرج ومرج تحت أطراف تنانيرهنّ، ألم تكن تلك هي الأرض الخصبة الحقيقية؟ ألم يقم إلهُ سوقٍ بإلقاء البضائع في حجورهنّ: توت وقشريّات وفطر وكتل من اللحم والكرنب، شاهد غير مرئيّ على هؤلاء اللائي وهبن

1- كلمة Markthalle تعني قاعة السوق أو السوق المسقوف وهي كلمة مركّبة من Markt أي السوق و Halle أي القاعة، وبنيامين يقصد أنّ الناس كانوا يدغمون الحرف الأخير من الكلمة الأولى مع مطلع الكلمة الثانية فتفقد الكلمتان معناهما الأصليّ. ونظراً لعدم وجود مقابل جيّد في العربية للتلاعب اللفظي الذي يورده بنيامين في النصّ آثرنا إيراد الألفاظ في أصلها. المترجم.

2- هي إلهة الخصوبة والمَزارع عند الرومان. المترجم.

Twitter: @ketab_n

أنفسهنّ له، فيما هنّ يستندن في خمول على أحد البراميل أو يتفحّصن في صمتٍ -وسلاسل الميزان المتراخية بين الركبتين- صفوف ربّات البيوت اللائي يحملن الأكياس والشِّباك ويسعين بعناء لتوجيه أطفالهنّ للسير أمامهنّ عبر الأزقّة الزلقة الكريهة الرائحة.

Twitter: @ketab_n

دائماً ما تُعلمني بداية كلّ مرض كيف يحلّ بي المُصاب بإيقاع واثق وإتقان وعناية. فإثارة الاهتمام كانت أمراً بعيداً عنه كلّ البعد. كان يبدأ ببعض البقع على البشرة أو بإحساس بالغثيان. كان الأمر وكأنّ المرض قد تعوّد على أن يصبر حتّى يتيح له الطبيب المجال للانتشار. كان يأتي ويفحصني ويؤكّد على أهميّة انتظاري للبقيّة الباقية في السرير، ويمنعني من القراءة. عموماً كان لديّ شيء أهمّ أقوم بإنجازه. فقد بدأت بمراجعة ما سيتحتّم حدوثه طالما أنّه لا يزال لديّ وقت ولم تختلط الأمور في رأسي كثيراً. كنت أقيس المسافة بين السرير والباب وأسأل نفسي إلى متى سيظلّ صوتي قادراً على اجتياز هذه المسافة. رأيت في خيالي الملعقة التي سكنتْ في حافّتها توسّلات أمّي، وكيف كشفت فجأة عن وجهها الحقيقيّ بعد أن اقتربت من شفتي بعناية، ودلقت بعنف دواءها المرّ في حلقومي. مثل رجل مخدّر يقوم بين حين وآخر بالحساب والتفكير لا لشيء إلاّ ليتأكّد من أنّه لا يزال قادراً على ذلك، هكذا كنت أعدّ الظلال الشمسية التي كانت تتراقص على سقف غرفتي وأعاود تجميع نقوش ورق الحائط في حزَم جديدة.

كنت مريضاً جدّاً، وربّما كان هذا هو مصدر ما يراه في الآخرون صبراً، وهو لا يتشابه في الحقيقة مع أيّ فضيلة: إنّه النزوع إلى رؤية كلّ ما هو مهمّ لي وهو يقترب منّي مثلما تدنو الساعات من سرير مرضي. وهكذا يحدث أن افتقد السعادة في رحلة ما إنْ لم أتمكّن من انتظار القطار طويلاً في المحطّة. ومن هنا أيضاً جاء ولعي بتقديم الهدايا، فما يفاجئ

Twitter: @ketab_n

الآخرين أستطيع، أنا الواهب، أن أتنبّأ به مبكّراً. نعم، إنّ الحاجة إلى التطلّع لما سيأتي مستعيناً بفترة الانتظار، مثلما يستعين المريض بالوسائد لسند ظهره، قد جعلتني لاحقاً أرى النساء يبدون أجمل كلّما كان عليّ أن أنتظرهنّ بارتياح أكثر ولفترات أطول.

سريري الذي كان عادةً مكاناً للوجود الأكثر انسحاباً وسكوناً، يكون آنئذ قد نال منزلة واهتماماً عامّاً. لوقت طويل لم يعد موطناً للعمليات السريّة المسائية، كالمطالعة ولعبي مع الشموع. الكتاب الذي كنت أضعه عادةً تحت الوسادة ووفقاً لطقس ممنوع يتكرّر كلّ ليلة بآخر ما تبقّى لي من قوى، لا يعود موجوداً. وتختفي خلال تلك الأسابيع تيّارات الحمّم ومواطن الاشتعال الصغيرة التي كانت تجعل الشمع الشفّاف يذوب. ربّما لم يكن المرض يسرق منّي بالأساس سوى هذه اللعبة الساكنة الحابسة للأنفاس، التي لم تخلُ أبداً من خوف غامض يداهمني. وهذا الخوف كان نذيراً لخوف لاحق رافق لعبة مشابهة على حافّة الليل ذاتها. كان على المرض أن يأتي لكي يمنحني وعياً نقيّاً. كان وعيي آنئذٍ طازجاً مثل ذلك الموضع من ملاءة السرير الخالية من أيّ ثنيات، التي كانت تنتظرني كلّ مساء حينما يسوّون فراشي. عادةً ما كانت أمّي تقوم بذلك. ومن الأريكة كنت أتابعها وهي تنفض الوسائد والأغطية. وأفكّر في المساءات التي استحممت فيها وجاءني طعام العشاء إلى السرير على صينيّة من البورسلين. خلف طلاء الصينيّة اخترقت امرأة بجهدٍ دغلاً من أغصان توت العلّيق مواجهةً الريح ببيرق عليه الشعار التالي: «سواء ذهبت شرقاً أو غرباً يظلّ بيتك هو الأفضل». وكانت ذكرى ذلك العشاء وذكرى أغصان توت العلّيق تزداد لطفاً عندما يتراءى للجسم أنّه قد تسامى للأبد عن حاجته لأكلِ شيء

Twitter: @ketab_n

ما. ولهذا كان يتشهّى الحكايات. التيّار القويّ الذي كان يملؤها، كان يسري فيه ويجرف معه الأعراض المرضية وكأنّها خشب طافٍ. كان الألم سدّاً حاجزاً، يقاوم الحكاية في البداية فقط، لكنّ لاحقاً وعندما تتكاثف الحكاية تتغلّب عليه وتدفعه إلى هاوية النسيان. كانت المداعبات اللطيفة تمهّد لهذا التيّار حوضه. وكنت أحبّ ذلك لأنّه من يديّ أمّي كانت تنهمر حكايات، سأسمعها منها لاحقاً. ومع هذه الحكايات ظهر إلى النور القليل ممّا عرفته عن أسلافي. كانوا يستحضرون مسيرة حياة أحد أسلافي، والقواعد الحياتية لجدّي وكأنّهم يريدون أن يفهموني أنّ من العجلة أن أتخلّى عبر موت مبكّر عن الامتيازات الكبيرة التي أمتلكها بفضل أصلي. أمّي كانت تختبر كلّ يوم مرّتين مدى اقترابي منه. باحتراسٍ كانت تذهب بالترمومتر إلى النافذة أو تحت المصباح وتمسك بالأنبوب الرفيع وكأنّه يضمّ حياتي في داخله. لاحقاً وعندما كبرت لم يعد من الصعب عليّ أن أفسّر سرّ وجود الروح في الجسد على أنّه وضع خيط الحياة في الأنبوب الصغير الذي يزوغ فيه دائماً عن بصري.

كان قياس الحرارة أمراً مجهداً. بعده كنت أفضّل البقاء وحيداً، لكي أنفرد بوسادتي. إذ إنّني وثقت خلال فترة ما علاقتي بتعرّجات الوسادة ونتوءاتها. وكنت ساعتها لا أفهم كثيراً ما هو المقصود بالتلال والجبال. كنت أختبئ مع القوى التي تُنشئ هذه التضاريس تحت غطاء واحد. وهكذا كان يحدث أحياناً أن تنفتح مغارة في السدّ الجبليّ. كنت أزحف في داخلها وأسحب الغطاء فوق رأسي وأضع أذني على الأخدود المظلم وأغذّي السكون بين حين وآخر بكلمات ترتد إليّ في صورة قصص. من حين لآخر كانت الأصابع تتدخّل وتقوم هي نفسها بفعل معيّن أو تبني مع

Twitter: @ketab_n

بعضها البعض «متجراً»، وخلف الطاولة التي يشكّلها الإصبعان الوسطيان، يومئ البنصران بحماس للزبون الذي هو أنا. لكنّ رغبتي كانت تخبو شيئاً فشيئاً كما تضعف سلطة مراقبتي للعب الأصابع. في النهاية كنت أتابع دون فضول تقريباً عبث أصابعي، التي كانت كمثْلِ رعاع حائرين يهيمون جامحين في مشارف مدينة يلتهمها الحريق. ليس من الممكن أن تأمن جانبهم، إذ إنّهم، حتّى لو اتّحدوا في براءة، لم يكن من المؤكّد أبداً أن يفترقوا في صمت ويسير كلّ منهم في طريقه كما كانت عليه الحال سابقاً. أحياناً كان طريقاً ممنوعاً هذا الذي في نهايته استراحة رائقة تكشف المنظر الجذّاب الذي يتحرّك في غطاء اللهب الموجود خلف جفنَي العين المغلقين. فرغم كلّ ما تلقّيته من حبّ أو عناية، لم يكن ممكناً وصل الغرفة التي فيها سريري بشكل تامّ بما يجري في بيتنا. كان عليّ أن أنتظر حلول المساء. لأنّه حينما كان الباب ينفتح أمام المصباح وتتأرجح استدارة فانوسه على العتبة باتجاهي، كان الأمر يبدو وكأنّ كرة الحياة الذهبية التي تدير كلّ ساعة من ساعات اليوم قد وجدت وهي تدخل غرفتي للمرّة الأولى مهجعاً نائياً. وقبل أن يأخذ الليل راحته تماماً لديّ، كانت تبدأ عندي حياة جديدة، أو بالأحرى تنتعش الحمّى القديمة تحت ضوء المصباح من لحظة لأُخرى. كانت هذه الوضعية تسمح لي بأن أستفيد من الضوء الذي لا يحصل عليه آخرون بسهولة. كنت أستفيد من سكوني وقربي من الحائط الملاصق لسريري لأحيّيَ الضوءَ بخيال الظلّ. كانت كلّ الألعاب التي أتاحتها أصابعي تنعكس مجدّداً على ورق الحائط بوضوح أقلّ وبهاء وغموض كبيرين. ورد في كتاب ألعابي: «بدلاً من الخوف من عتمة الليل، يستخدم الأطفال الفرِحون هذه العتمة لكي يوفّروا لأنفسهم جوّاً من المرح»، وتلي ذلك تعليمات بصور كثيرة تشرح كيف نصنع على

Twitter: @ketab_n

ظهر السرير ظلالاً لكبشٍ أو لرامي قنابل أو لبجعة أو أرنب.

أنا نفسي نادراً ما أنجزت شيئاً يتجاوز شدقَي ذئب، لكنّهما كان كبيرين جدّاً وفاغرَين بحيث لا يمكن أن يكونا سوى لذئب الفنريس الأسطوريّ الذي تركته يتحرّك باعتباره مدمّراً للعالم في المساحة ذاتها التي تركوني فيها أُصارع مرض الأطفال. ذات يوم انسحب المرض. وخفّف التعافي، مثل الولادة، من القيود التي كانت الحُمّى تفرضها بإحكام. وبدأ الخدم يتردّدون عليّ أكثر ليقوموا بما كانت تقوم به الأمّ. وذات صباح استسلمت مجدّداً بوهنٍ وبعد فترة انقطاع طويلة لصوتِ نفضِ السجّاد الذي كان يدخل عبر النافذة ويحفر في قلب الطفل حفراً أعمق ممّا يحفر صوت المحبوبة في قلب الرجل. إنّ نفْض السجّاد، الذي كان تعبيراً ينتمي إلى الطبقات الدنيا، ويخصّ الكبار بحقّ، لم يتوقّف أبداً وظلّ دائماً محافظاً على معناه؛ أحياناً كان يسكن بعض الوقت ثمّ يستمرّ بتراخٍ وهدوء ثمّ يعود إلى ركض غير مبرّر وكأنّه يتعجّل قبل سقوط المطر.

مثلما كان المرض غير ملحوظ في بدايته، غادر أيضاً على هذا النحو. إلاّ أنّه، وعندما أصبحُ بصدد نسيانه تماماً، كان يعاود التسلّل مرّة أخيرة إلى ذاكرتي عبرَ شهادة المدرسة. عدد الساعات التي تغيّبتها كان مسجّلاً أسفل الشهادة. لم يبدُ لي العدد بأيّ حال من الأحوال رماديّاً أو رتيباً مثل عدد الأيام التي كنت حاضراً فيها، بل كان مصفوفاً مثل الأشرطة الملوّنة على صدر جرحى الحروب، وكلّما طالت شارة التكريم تجسّدت في عيني هذه الملحوظة: غياب -مائة وثلاث وسبعون ساعة.

Twitter: @ketab_n

مثلما يكوّن المرء صورة عن طبيعته وكيانه من خلال بيته الذي يسكنه والحيّ الذي يعيش فيه، كان الأمر كذلك بالنسبة لي مع حيوانات حديقة الحيوان. فمن النعامات التي كوّنت صفّ تشريفٍ أمام خلفية من تماثيل أبي الهول والأهرامات إلى فرس النهر الذي يسكن معبده مثل كاهن سحريّ في طريقه للانصهار جسدياً مع الجنيّ الذي يخدمه، لا يكاد يكون ثمة حيوان لم أكن أحبّ أو أخشى مكان سكناه. ونادرة كانت الحيوانات التي تتميّز بحكم موقع مسكنها، وهي غالباً ما تكون من سكّان أطراف الحديقة: هذه الأجزاء التي كانت تتماسّ فيها الحديقة مع المقاهي وأرض المعارض. وعلى وجه الخصوص كان ثعلب الماء من أكثر سكّان تلك المناطق تميّزاً. من بين البوّابات الثلاث المؤدّية إليه كانت البوابة الواقعة على جسر ليشتنشتاين هي الأقرب إليه، لكنّها كانت الأقلّ استخداماً، وكانت تقود إلى أكثر المناطق المهجورة في الحديقة. الجادّة التي كانت تستقبل الزوّار هناك كانت، بكُرات مصابيحها البيضاء، تشبه كورنيشاً مهجوراً في منتجعات أيلزن أو باد بيرمونت. وقبل وقت طويل من تحوّل هذه الأماكن إلى بقع مهجورة تبدو أكثر قدماً من الحمّامات الرومانية، حملت هذه الزاوية من حديقة الحيوان ملامح المستقبل. كانت زاوية تنبؤيّة. فكما توجد نباتات يقال إنّها تمتلك القدرة على رؤية المستقبل، توجد أماكن لديها الموهبة نفسها. ومعظمها أماكن مهجورة. كذلك حال البراعم التي تسمق مستندة على الأسوار أو الشوارع المسدودة أو الحدائق الصغيرة أمام البيوت التي لا يبقى فيها أحد. في هذه الأماكن، يبدو كلّ ما هو آتٍ فعلاً وكأنّه قد مضى. إذنْ في هذا الجزء من حديقة

Twitter: @ketab_n

الحيوان ودائماً حيثما ضللت طريقي فيه كنت أنعم برؤية حافّة النافورة التي برزت شامخة في منتصف الحديقة. لقد كان ذلك هو قفص ثعلب الماء. إنّه قفص حقّاً، فالقضبان القويّة تسيّج حافّة الحوض الذي يقيم فيه الحيوان. ثمّة صخرة صغيرة وكهف يحيطان في الخلفيّة بالشكل البيضاويّ للحوض. لقد صُمّم الكهف كسكن للحيوان لكنّني لم أره مطلقاً في داخله. وهكذا كنت كثيراً ما أبقى منتظراً إلى ما لا نهاية له أمام هذا الغور الأسود الذي لا قرار له، من أجل أن أكتشف ثعلب الماء. وإذا ما تمكّنت في النهاية من رؤيته فيكون ذلك فقط لبرهة، لأنّه في لحظتها يكون هذا الساكن الزلق للخزّان قد اختفى مجدّداً في اللّيل البليل. بالتأكيد لم يكن ذاك الذي يقيم فيه ثعلب الماء في الحقيقة خزّاناً. لكنّ عندما أنظر إلى مياهه، كان يتراءى لي وكأنّ مياه الأمطار تسقط في كلّ بالوعات المدينة فقط من أجل أن تصبّ في ذلك الحوض وتغذّي حيوانه. لأنّ الحيوان القاطن هناك كان مدللّاً، وبالنسبة له كان الكهف الخاوي الرطب بمثابة معبد أكثر منه ملجأً. لقد كان الحيوان المقدّس لماء المطر. أمّا عن كونه نشأ في هذه المصارف أو كونه يتغذّى فقط من تيّاراتها وجداولها، فهو ما لم يمكن باستطاعتي تحديده. كان دائماً مشغولاً إلى أقصى حدّ، وكأنّه لا يستطيع في أعماقه التخلّي عن ذلك. لكنّني كنت أودّ لو أستطيع أن أستند بجبيني على قضبان قفصه لعدّة أيّام دون أن أشبع من النظر إليه. ومن ذلك تبيّنت أيضاً صلته الخفية بالمطر. فلم أكن أبداً مولعاً بأن يطول النهار أكثر إلاّ في الأيام التي تقوم فيها الأمطار بأسنانها الرقيقة أو الغليظة بتمشيطه ببطء لساعات ودقائق. مطيعاً مثل فتاة صغيرة كان هو يحني هامته تحت ذلك المشط الرماديّ. كنت أنظر إليه دون ملل. وكنت أنتظر، لا أن يخفّ هطول الأمطار، بل أن يزداد أكثر

Twitter: @ketab_n

فأكثر. كنت أسمعها تدقّ كالطبل على النوافذ. ومن القطرات تنساب تيّاراً وتصبّ مدوّمةً في بالوعات الصرف. أثناء الأمطار الغزيرة كنت أشعر بالأمان. وكان مستقبلي يوشوش لي بكيفية إنشاد أغنية ما قبل النوم أمام مهد طفل. كم كنت أدرك أنّني أنمو داخلها. وفي تلك الساعات خلف النوافذ الكابية شعرت بأنّني في بيت ثعلب الماء. لكنّني كنت لا ألحظ ذلك إلاّ عندما أكون في المرة التالية أمام قفصه. عندها كان عليّ أن أنتظر مجدّداً، حتّى يخرج الجسد الزلق الأسود إلى سطح الماء ليختفي في الحال لقضاء أمور مستعجلة.

Twitter: @ketab_n

جزيرة الطاووس وغلينيكه

كان الصيف يقرّبني من مناطق أسرة هوهنتسولرن الحاكمة[1]. في بوتسدام كان هناك القصر الجديد وقصر «سان سوسي» والحديقة البرية وفيلا شارلوتنهوف، وفي بابلسبيرغ القصر وحدائقه المجاورة لبيوتنا الصيفية. لم يزعجني القرب من منشآت الأسرة الحاكمة أبداً أثناء لعبي، نظراً لأنّني جعلت من المنطقة التي تقع فيها المباني الملكية ملْكاً لي. وكان بالإمكان أن يُكتب تاريخ حكمي الذي امتدّ من اعتلائي العرش خلال أحد أيّام الصيف وحتّى انهيار مملكتي في آخر الخريف. كما أنّ وجودي كلّه قد غاص في معارك من أجل هذه المملكة. لم تكن تلك المعارك ضدّ ملكٍ غازٍ بل ضدّ هذه الأرض والأشباح التي كانت ترسلها لمحاربتي.

في أحد الأصائل في جزيرة الطاووس تلقّيت أقسى هزيمة. لقد قالوا لي إنّ عليّ أن أبحث عن ريش طاووس بين الحشائش. لكم بدت الجزيرة جذّابة لي حينها بوصفها مكاناً لهذه الفنائم الساحرة! لكنّ عندما قلّبت الحشائش طولاً وعرضاً دون أن أعثر على الكنز الموعود، شعرت بحزن يفوق غضبي على هذه الحيوانات التي تتجوّل رواحاً وغدواً أمام أقفاصها الكبيرة دون أن تفقد أيّاً من ريشها الزاهي. تُعادل الاكتشافات عند الصغار انتصارات الكبار. لقد بحثت عن شيء يجعلني أمتلك الجزيرة بأكملها، وكأنّه يفتحها خصّيصاً لي. بريشة واحدة كان بإمكاني أن امتلكها -ليس الجزيرة وحدها بل وأيضاً ذلك الأصيل، وكذا الانتقال

1- من أعرق أسر النبلاء في ألمانيا وإليها ينتمي الملوك البروسيّون منذ عام 1701 والقياصرة الألمان منذ عام 1871 وحتّى 1918. المترجم.

Twitter: @ketab_n

بالعبّارة من زاركو -كلّ هذا كان سيكون من نصيبي كليّةً وبلا منازع، لو كانت الريشة في حوزتي. راحت الجزيرة ومعها وطن ثانٍ: إنّه أرض الطاووس. وقبل العودة إلى المنزل قرأت على النوافذ البرّاقة لفناء القصر اللافتات التي اخترقها وهج الشمس والتي تقول بأنّه غير مسموح لي بالدخول إليه.

ولو لم يكن ألمي في السابق من النوع الذي لا يداوى، ولو لم أفقد بسبب ريشة لم أتمكّن من الحصول عليها أرضاً موروثة لي، لما كانت في مرّة أخرى غبطتي بتعلّم ركوب الدراجات كبيرة لهذه الدرجة، بحيث أنّني غزوت من خلالها أراضي جديدة. كان ذلك في واحدة من تلك القاعات ذوات الأرضيّة الأسفلتيّة، حيث كان يجري في فترة موضة رياضة الدراجات تعليم فنّ ركوبها -الذي يتعلّمه الأطفال الآن من بعضهم البعض- بطريقة معقّدة جدّاً مثل قيادة السيّارات. كانت القاعة في منطقة ريفية بالقرب من غلينيكه، وتعود إلى عصر لم تكن فيه الرياضة والهواء الطلق قد أصبحا شيئين لا ينفصمان بعد. كما لم تكن هناك أيضاً تلك الأنواع المختلفة من التدريبات. وكان كلّ فرد حريصاً على تمييز نفسه عن الآخرين عبر مكانه المميّز وملابسه الرياضية الفاقعة الألوان. كما أنّ هذه الفترة المبكرة كانت لها خصوصيتها، بحيث أنّ الفرائبية كانت هي الطابع المميّز للرياضة وخصوصاً تلك التي كانت تمارَس هناك في تلك القاعة. ومن هناك كانت تتحرّك إلى جانب درّاجات الرجال والنساء والأطفال موديلات حديثة من الدرّاجات عجلتها الأمامية أكبر أربع مرّات أو خمساً من عجلتها الخلفية، كما أنّ مقعدها العالي كان يشبه المقعد الذي يستخدمه البهلوانات في تقديم عروضهم.

Twitter: @ketab_n

كانت حمّامات السباحة تحتوي على حوضين منفصلين، واحد للسبّاحين وآخر لمن لا يعرفون السباحة. وهنا يمكننا أيضاً الحديث عن فصل بين هؤلاء الذين يتوجّب عليهم التدرّب على الأسفلت والآخرين الذين يُسمح لهم بمغادرة القاعة وركوب الدرّاجات في الحديقة. استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتّى انتقلتُ إلى المجموعة الأُخرى. في أحد أيّام الصيف الجميلة أطلقوني في الخلاء. كنت مخدّراً والطريق كان مليئاً بالحصباء، والحصى الصّغار كانت تخرخش. للمرّة الأولى لم يكن ثمة حماية من الشمس التي أعمتني. كان الأسفلت في الداخل ظليلاً ومريحاً، والطريق فيه غير محدّدة. لكنّ في الخارج كان الخطر متربّصاً عند كلّ منحنى. وكانت الدرّاجة، رغم أنّها ليس لها إمكان الحركة التلقائية، ومع أنّ الطريق كانت لا تزال مستوية، تسير وكأنّها تفعل ذلك من تلقاء نفسها. وبالنسبة لي شعرت وكأنني لم أركبها من قبل. بدأت إرادة خاصّة تعلن ذاتها في مقودها. وكان بمقدور أيّ نتوء في الأرض أن يسلبني توازني. كنت قد تعلّمت منذ فترة طويلة ألاّ أسقط، لكنّ ما حدث الآن هو أنّ الجاذبية الأرضية قد استعملت حقّها الذي استغنت عنه لسنوات طويلة. على حين غرّة انحدر الطريق بعد ارتفاع طفيف، والموجة الأرضيّة التي كنت أجهد في ارتقائها تبخّرت إلى سحابة من الغبار والحصى أمام الإطار المطاطيّ، وغصون الأشجار ارتطمت مع السرعة بوجهي، وعندما أردت أن أتخلّى عن كلّ أمل في النجاة من السقوط لوّحت لي فجأةً العتبة اللطيفة قبل المدخل. بقلب خافق، ولكنّ أيضاً بدفعة كبيرة مدّني بها المنحدر الذي خلّفته وراءي، ظهرتُ معتلياً الدرّاجة في عتمة القاعة. وعندما نزلت من عليها، كنت على يقين بأنّه في هذا الصيف سيكون كلّ من جسر كولهازن ومحطّة قطاره وبحيرة غريبنيتز بتكميباتها المقوّسة التي تقود إلى طرق

Twitter: @ketab_n

المشاة عند الهبوط وقصر بابلسبيرغ بأسواره الجامدة وحدائق المزارعين الشذيّة في غلينيكه، هذا كلّه سيكون قد سقط في حوزتي دون عناء عبر التزاوج مع تموّجات التلال مثلما تنتقل إمارات وممالك إلى سلطة القيصر عبر التصاهر.

Twitter: @ketab_n

نبأ وفاة

ربّما كنت في الخامسة من العمر. ذات مساء، وكنت قد رقدت في سريري، دخل أبي، جاء ليتمنّى لي أمنية طيبة. ربّما لم يكن يرغب تماماً في أن ينقل لي نبأ وفاة أحد أقاربه. كان رجلاً طاعناً في السنّ ولم يهمنّي كثيراً. حكى لي أبي الخبر بالتفصيل لكنّني لم أستوعب ما قاله. في المقابل انطبعت غرفتي في ذاكرتي في تلك الليلة، وكأنّني أعرف أنني في يوم ما سيكون لي مجدّداً شأنٌ ما هنا. كنت قد صرت يافعاً منذ زمن وسمعتُ أنّ ذلك القريب مات مريضاً بالزهريّ. لقد دخل أبي إلى غرفتي لكي يكون وحيداً. كان يبحث عن غرفتي وليس عنّي. كلاهما ما كانا بحاجة إلى شخص ثالث يثقان به.

Twitter: @ketab_n

بلومسهوف رقم 12

لم يكن ثمة جرس له رنين ألطف. خلف عتبة هذا المنزل كنت أشعر بأمان ودفء أكثر حتّى ممّا في بيت والديّ. كان بمثابة وردة ضخمة من المخمل تنبثق من غطائها المجعّد أمام ناظري. في داخل هذه الوردة كانت تجلس جدّتي: أمّ أمّي وكانت أرملة. عند زيارة السيّدة العجوز في ركنها المفروش بالسجّاد بإفريزه الصغير المزيّن الذي يطلّ على فناء بلومسهوف، كان يصعب على المرء تصوّر أنّها قامت برحلة بحرية كبيرة أو حتّى برحلات في الصحراء كانت تنظّمها شركة «شتانغن» السياحية وتشارك هي فيها كلّ سنتين أو ثلاث سنوات. ومن بين كلّ بيوت الطبقة العليا التي زرتها كان هذا البيت أكثرها كوسموبوليتية. لم يكن ذلك بادياً عليه، لكنّ مادونا دي كامبيليو وبريندیسي وفيسترلاند وأثينا وأيّ مكان آخر كانت تبعث منه لي ببطاقات بريدية، كلّ هذه الأماكن كانت تعبق في البطاقات البريدية بهواء بلومسهوف. خطّ اليد الكبير المريح الذي كان يحيط بأسفل الصورة أو يشكّل سحابة في سمائها، كان يبيّن تماماً أنّ جدّتي هي التي تسكنها وأنّها مستعمرات تابعة لبلومسهوف. وعندما يفتح البلد الأمّ أبوابه مجدّداً كنت أطأ أرضيّته وأنا ممتلئ خجلاً وكأنّ تلك الأرضية الخشبية قد رقصت مع سيّدتها على أمواج البوسفور، وكأنّ السجّاد الإيراني كان لا يزال يخفي داخله تراباً من سمرقند.

بأيّ كلمات يمكن ترجمة هذا الشعور شبه الأزليّ بالأمان البرجوازيّ الذي كان ينبعث من ذلك المنزل؟ جرْد محتويات غرفه الكثيرة لن يكون اليوم مثار فخر تاجر للأشياء القديمة، رغم أنّ منتجات السبعينات كانت أكثر متانة من طراز «اليوغندشتيل» المتأخّر -والشيء المميّز لهذه المنتجات

Twitter: @ketab_n

كان هذا التراخي في ترك الأمور لمرور الزمن، أمّا فيما يتعلّق بمستقبلها فقد عهدت به لمتانة خامتها وتحمّلها وليس لحساب العقل. هنا ساد نوع من الأثاث جمع عن هوىً بين زخارف قرون عديدة تخلّلته هي وديمومتها. لم يكن ثمة مكان للبؤس في هذه الغرف، التي لم يجد الموت أيضاً لنفسه موضعاً فيها. لم يكن فيها مكان للموت. وهكذا مات سكّانها في المصحّات، والأثاث انتقل في أوّل عملية توريث إلى التجّار. لم يكن الموت مقدّراً فيها. ولهذا كانت تبدو مريحة خلال النهار وليلاً كانت مسرحاً للأحلام السيّئة. لقد تبيّن أنّ بئر السلّم التي وطأتُها كانت مأوى لكابوس يثقل كلّ أعضائي في البداية ويجعلها خائرة القوى، وفي نهاية المطاف، وعندما لا تعود تفصلني عن العتبة المنشودة سوى خطوات قليلة، يأسرني تماماً. مثل هذه الأحلام كانت هي الثمن الذي به يُشترى الأمان والدفء.

لم تمت جدّتي في بلومسهوف. وفي الجهة المقابلة سكنت أمّ أبي التي كانت تكبرها سنّاً. وهي أيضاً ماتت في مكان آخر. وهكذا أصبح الشارع بالنسبة لي بمثابة فردوس، ومملكة أخروية للجدّتين الخالدتين رغم وفاتهما. ولأنّه يحلو للخيال عندما يلقي بوشاحه فوق منطقة ما أن تتجعّد حوافّه بأمزجة غريبة، فقد حُوّل دكّان بقالة يقع بالقرب من بيت الجدّة إلى نصب تذكاريّ للجدّ الذي كان تاجراً، فقط لأنّ صاحب المحلّ اسمه أيضاً غيورغ مثل الجدّ. عُلّقت الصورة النصفيّة للجدّ المتوفّى مبكّراً بالحجم الطبيعيّ في مقابل زوجته في الممرّ الذي يقود إلى أجزاء معزولة من المنزل، كانت الحياة تعود إليها في مناسبات متواترة. تفتح زيارة إحدى البنات المتزوّجات غرفة خزين ظلّت لفترة طويلة غير مستعملة، وتستضيفني غرفة خلفية أُخرى عندما يقضي الكبار قيلولة الظهيرة،

Twitter: @ketab_n

وغرفة ثالثة كان يخرج منها ضجيج ماكنة الخياطة في الأيّام التي كانت تأتي فيها خيّاطة إلى البيت. كانت الشرفة هي المكان الأهمّ بالنسبة لي بين هذه الغرف المنعزلة، سواء أكان ذلك لأنّ أثاثها كان متواضعاً، أو لأنّها لا تحظى باهتمام كبير لدى الكبار، أو بسبب ضجيج الشارع الذي يصل إليها مخفّفاً أو لأنّها تتيح لي النظر إلى أفتية غريبة ببوّابيها وأطفالها وعازفي البيانولا فيها. وبالمناسبة كانت أصواتاً أكثر منها أشكالاً، تلك التي كانت تظهر في الشرفة. كان الحيّ أيضاً راقياً والحركة في أفتيته لم تكن أبداً عنيفة. هناك ساد شيء من استرخاء الأغنياء الذين تُنجز لهم الأعمال، وشيء من عطلة الأحد ظلّ باقياً في أساس الأسبوع. لذلك كان الأحد هو يوم الشرفة، الأحد الذي لم تتمكّن الغرف الأُخرى -وكأنّها معيبة- من الاحتفاظ به، لأنّه كان يتسرّب عبرها؛ وحدها الشرفة المطلّة على الفناء بقضبانه المخصّصة لتعليق السجاجيد وعلى الشرفات الأُخرى كانت تمسك بتلابيبه بحيث لا تفلت منها اهتزازة واحدة من شحنة الأجراس التي تحمّله بها كنيستا الرّسل الاثني عشر ومتّى، بل تبقى مكدّسة فيها حتّى المساء.

لم تكن غرف هذا المنزل عديدة فحسب، بل كانت أيضاً في جزء منها فسيحة جدّاً. كان يتحتّم عليّ لكي أحيّي جدّتي وهي جالسة في ركنها، حيث تتوفّر أمامي مباشرةً قرب سلّة خياطتها فاكهة أو شوكولاتة، أن أعبر غرفة الطّعام الضخمة. لا تتبيّن الغاية الفعلية من هذه الغرف الواسعة إلاّ في أوّل أيام عطلة عيد الميلاد، حينما تمتلئ الموائد الطويلة المخصّصة لهدايا العيد عن آخرها بسبب العدد الكبير لمن سيحصلون على الهدايا. بسبب الزحام، لم يكن من المضمون أبداً عدم فقدان الأمكنة عندما يتمّ

Twitter: @ketab_n

الانتهاء من المأدبة الكبيرة، ثمّ تُعدّ المائدة مرّة أُخرى بعد الظهيرة لطعام مستخدم عجوز أو لابن البوّاب. لكنّ صعوبة اليوم لم تكمن في ذلك، بل في البداية، عندما ينفتح الباب المروحيّ. في خلفية الغرفة الكبيرة كانت شجرة الميلاد تلمع، وعلى الموائد الطويلة لم يكن ثمة موضع لم يكن عليه على الأقلّ طبق ملوّن يجذب النظر إليه بحلوى اللوز وأغصان التنّوب. كما كانت موائد عديدة تلوّح لنا بكثير من اللُعَب والكتب. كان من الأفضل عدم التركيز فيها بدقّة، إذ كان من الممكن أن أفسد يومي لو تعجّلت في تهيئة نفسي للحصول على هدايا كانت قد أصبحتْ ملكاً مشروعاً لآخرين. ولتجنّب ذلك كنت أقف كالمزروع على العتبة وعلى شفتي ابتسامة لا يمكن لأحد أن يخمّن إن كان بريق الشجرة قد أوقظها فيّ، أم أنّه بريق الهدايا المخصّصة لي والتي لا أجرؤ -رغماً عنّي- على التقدّم نحوها. في نهاية المطاف كان ثمة شيء ثالث يحرّكني أكثر عمقاً من هذين السببين الزائفين بل ومن دافعي الحقيقيّ. إذ إنّ الهدايا كانت لا تزال ملكاً لمانحها أكثر من كونها ملكاً لي. كانت قابلة للكسر وكنت أخشى أن ألمسها أمام الملأ بشكل غير لائق. ولم نكن لنتأكّد من ملكيّتنا الجديدة إلاّ في الخارج عند المدخل، عندما كانت الخادمة تقوم بلفّها لنا في ورق التغليف ويختفي شكلها في علب كرتونية وحزَم مخلّفة وزنها وحده كعُربون لنا.

كان هذا يحدث بعد ساعات طويلة. وعند خروجنا في الفسق حاملين الأشياء تحت أذرعنا ملفوفة ومربوطة، كانت عربة الخيل تنتظرنا والجليد باقٍ دون مساس على الأفاريز والأسيجة، فيما يكون كلحَ لونه على الأرض، وتكون مصابيح الغاز أُضيئت واحداً واحداً، كاشفةً مرور عامل الإنارة الذي توجّب عليه عليه حمل شعلته في أمسية العيد الزّائقة تلك أيضاً -ثمّ تغرق المدينة في ذاتها مثل جِراب مثقل بي وبسعادتي.

Twitter: @ketab_n

مساء شتويّ

في الأماسي الشتوية كانت أمّي تأخذني معها للتسوّق. برلين التي امتدّت أمامي آنذاك كانت مظلمة ومجهولة. لقد بقينا في الغرب القديم الذي كانت ملامح شوارعه أكثر ألفة وتواضعاً من تلك المفضّلة لديّ لاحقاً. لم تعد النوافذ البارزة والأعمدة ملحوظة بوضوح، وكان يبزغ ضوء في الواجهات، لكنّ ذلك الضوء الذي كان ينفذ عبر ستائر الموسلين أو عبر شفّ النافذة أو من زجاجة المصباح الغازي تحت النجفة، لم يكن يكشف من الحجرات المضاءة إلاّ قليلاً. لقد كان هذا الضوء موجوداً من أجل ذاته وقد جذبني وجعلني ميّالاً للتأمّل. ولا يزال هذا الأثر يفعل فعله في الذاكرة حتّى اليوم ويحيلني ذلك إلى إحدى بطاقاتي البريدية التي تصوّر ساحة برلينية. المنازل المحيطة بالساحة لها زرقة خفيفة والسماء الليلية المقمرة كانت أكثر دكنة. احتلّ القمر وجميع النوافذ مساحات بيضاء وسط زرقة البطاقة الكرتونية. وكانت في حاجة لأن توضع أمام مصباح كي يظهر ضوء أصفر من السحب وصفوف النوافذ. لم أكن أعرف المنطقة التي تصوّرها البطاقة. لقد كُتب أسفلها Hallesches Tor[1]، البوّابة والقاعة اجتمعتا وشكّلتا الكهف المضيء الذي أكتشف فيه ذكرياتي عن برلين الشتوية.

1- يتلاعب بنيامين بكلمة Halle التي تعني قاعة أو صالة وهي في الوقت ذاته اسم لمدينة ألمانية. واسم المكان Hallesches Tor وهو محطّة شهيرة في برلين يعني «بوابة هاله» في إشارة إلى إحدى بوابات المدينة القديمة في القرن الثامن عشر، كان يستخدمها القادمون من مدينة هاله الواقعة على نهر زاله أو المتوجّهون إليها. المترجم.

Twitter: @ketab_n

الشارع المنحني

تتحدّث الحكايات الخيالية أحياناً عن ممرّات وأروقة تضمّ على جانبيها غرفاً مليئة بالمفريات والمخاطر. عندما كنت طفلاً، اعتدتُ على انتهاج طريق معيّنة. عند الموضع الأكثر حدّة في انثنائها كان يوجد أكثر أركانها ظلاماً: حمّام السباحة بسوره المكسوّ بالقرميد الأحمر. كان ماء حوض السباحة يُجدّد عدّة مرّات خلال الأسبوع. عندها يُكتب على البوّابة «مغلق مؤقّتاً»، وكانت تلك بالنسبة لي مثل مهلة تأجيل لحكم الإعدام. كنت أتسكّع أمام المعارض الزجاجيّة للمحالّ وفي حماها أغذّي قواي من زخم الأشياء العتيقة التي تعرضها. في مقابل حمّام السباحة كان ثمة محلّ رهون، فيما زحم بائعو الأشياء القديمة الرصيف ببضائعهم المنزلية. كانت تلك هي البقعة التي تباع فيها الملابس المستعملة.

حيثما ينتهي الشارع المنحني في الغرب كان ثمة محلّ لأدوات الكتابة. دون سابق تمهيد تعلّق النظرات بروايات نك كارتر البوليسية الرخيصة. لكنّني كنت أعرف كيف أسترق النظر إلى هذه الروايات المستهجنة في خلفيّة المشهد. لم يكن ثمّة مارّة. وكان باستطاعتي أن أحدّق طويلاً بمعرضه الزجاجيّ بحيث تكون دفاتر البنوك والفرجارات واللواصق دليل براءتي، وأندفع بعد ذلك مباشرةً إلى أحضان ذلك الكيان الورقيّ. تكشف الغريزة ما يتبيّن أنّه أكثر الأشياء فظاظة فينا ومعه تذوب. في المعرض الزّجاجيّ تحتفل زهور وفوانيس بالحدث المحيّر.

كانت قاعة القراءة التابعة للحيّ غير بعيدة عن حمّام السباحة. بمقصوراتها الحديدية لم تكن عالية ولا قارسة البرودة بالنسبة لي. كنت قد شممت فيها مكاني الحقيقيّ. لأنّ رائحتها كانت تسبقها. كانت تنتظر

Twitter: @ketab_n

وكأنّها تحت طبقة رقيقة حاجبةً أسفل تلك الرائحة الرطبة الباردة التي كانت في استقبالي في بئر السلّم. كنت أدفع الباب الحديديّ ولكنّ بخجل. إلاّ أنّه بمجرد دخولي القاعة يبدأ السكون في استيعاب قواي.

في حمّام السباحة كان ضجيج الأصوات المختلط بوشيش المياه يثير تقزّزي. كان يصل إلى الصالة الخارجية حيثما يشتري المرء فيشات الدخول المصنوعة من عظام. وضْع القدم على عتبة المسبح كان يعني توديع العالم العلويّ. بعدها لا يكون ثمة من حماية لأيّ أحد في الداخل من تيّارات الماء الطاغية. كانت تيّارات الماء مقرّاً لإلهة غيورة تحبّ أن تضعنا على صدرها وأن تُرضعنا من غرف باردة بحيث لا يبقى في الأعلى أيّ شيء يذكّر بنا.

في الشتاء تكون مصابيح الغاز قد أُضيئت عند خروجي من حمّام السباحة متوجّهاً إلى البيت، لكنّ هذا لم يكن يمنعني من أن أتّخذ طريقاً أطول يقودني إلى ناحيتي تلك، وكأنّني أريد أن أضبطها في حرارة المشهد. كان الضوء يشتعل في المحلّ أيضاً وجزء منه يسقط على البضاعة المعروضة ويختلط بأعمدة الإنارة. في ذلك الضوء المزدوج كان المعرض الزجاجيّ يَعِدُ بأكثر ممّا كان يَعِدُ به في أوقات أُخرى. فقد تكثّفت ساعتها تلك الفتنة التي كانت تمارسها عليّ البطاقات البريدية الساخرة والمطويّات الدعائية بفحشها الجليّ، وذلك عبر الوعي بأنّني قد أنهيت عمل اليوم. ما كان يقع لي كنت أتمكّن من حمله معي بحرص إلى البيت لأضعه تحت مصباحي. نعم، ظلّ السرير ينقلني كثيراً إلى هذا المحلّ وإلى تيّار البشر المتدفّق عبر الشارع المنحني. كان ثمة صبية يلاقونني فيه ويدفعونني، لكنّ الكبرياء التي يكونون أثاروها في ساعتها لم تبزغ ثانيةً. وكان النومُ يُكسب سكونَ غرفتي خدراً يعوّضني في لحظة عن ذاك الضجيج المقيت في حمّام السباحة.

Twitter: @ketab_n

الجورب

كانت الصُّوانة[1] هي الخزانة الأولى التي تنفتح، متى شئت أنا ذلك. كلّ ما كان عليّ هو أن أجذب المقبض فيندفع بابها في مواجهتي. تحت القمصان والسراويل والثياب الداخلية التي كانت محفوظة خلفه، كان هناك الشيء الذي جعل من الصّوانة مغامرة لي. كان يتوجّب عليّ أن أشقّ طريقاً حتّى آخر زاوية فيها، ثمّ أعثر على الجوارب التي رقدت مكوّمة وملفوفة بطريقة تقليدية على شكل كرات. كلّ زوج منها كان يبدو مثل حقيبة صغيرة. لم يكن ثمة شيء أكثر متعة من أن تغوص يدي إلى أقصى عمق ممكن في داخلها. لم أفعل ذلك من أجل الحصول على دفء نسيجها الصوفيّ. كان الشيء «المجلوب» الذي تمسك به يدي دائماً في الداخل الملفوف هو ما يجذبني إلى العمق. وعندما أحيطه بقبضتي وتؤكّد لي قواي أنّ هذه الكتلة الصوفية الناعمة صارت في حوزتي، يبدأ الجزء الثاني من اللعبة والذي يؤدّي إلى الكشف المثير. لأنّني كنت في تلك الأثناء أعمل على سحب الشيء «المجلوب» من حقيبته الصوفية، وأسحبه ناحيتي أكثر فأكثر، حتّى يحدث ما هو مذهل: أكون أخرجتُ «المجلوب» لكنّ «الحقيبة» التي كان يرقد بداخلها لم تعد موجودة. لم أشبع من تكرار هذه التجربة بالقدر الكافي. لقد علّمتني أنّ الشكل والمضمون، الغطاء ومحتواه هما الشي نفسه. وقادني ذلك إلى جذب الحقيقة من الخيال بحذرٍ مثلما سحبتْ يد الطفل الجوربَ من «الحقيبة».

1- تُسمّى في ألمانيا وفي بعض البلدان العربيّة «كومود»، وهي آتية من المفردة الفرنسية commode، وتعني خزانة واطئة بجوارير عريضة توضع فيها ملابس صغيرة ولوازم بيتيّة أخرى. المترجم.

Twitter: @ketab_n

«المومه» ريلين

ترد «المومه» ريلين[1] في إحدى قصائد الأطفال القديمة. ولأنّ كلمة «مومه» لم تكن تعني لي شيئاً تحوّل هذا المخلوق عندي إلى شبح اسمه «مومريلين». تعلّمت مبكّراً أن أتخفّى وراء الكلمات التي كانت في الواقع غماماً. موهبة التعرّف على أوجه الشبه ليست سوى بقايا ضعيفة لدافع قهريّ قديم للتشبّه والتقليد. وقد مارسته الكلمات عليّ. لا تلك التي تجعلني شبيهاً بالأطفال الأنموذجيّين، بل بالبيوت والأثاث والملابس. كنت مشوّهاً من جرّاء التشابه مع كلّ شيء حولي. سكنت كحيوان رخو داخل قوقعة القرن التاسع عشر الأجوف كقوقعة فارغة. أضعها على أذني. وماذا أسمع؟ لا أسمع دويّ مدفعية الميدان، ولا موسيقى أوفنباخ الراقصة، ولا حتّى وقْع سنابك الخيل على الحجارة الأسفلتية أو نفير تغيير دورية الحراسة. كلاّ، ما أسمعه هو خشخشة فحم الأنتراسيت الذي يسقط من علبة الصفيح في فرن حديديّ، إنّه الدويّ المكتوم الذي تشتعل به فتيلة المصباح، وقرقعة غطائه على حلقاته النحاسية عندما تمرّ عربة في الشارع. وأصوات أُخرى كصلصلة سلّة المفاتيح وأصوات الجرَسين على السلّمين الأماميّ والخلفيّ، وأخيراً أيضاً قصيدة قصيرة للأطفال.

«أريد أن أحكي لك عن المومريلين». هذا البيت الصغير مشوّه. لكنّه يسع بداخله كلّ عالم الطفولة المشوّه. الخالة ريلين التي كانت ماثلة فيه في السابق كانت قد اختفت عندما قيل لي هذا البيت لأوّل مرّة. أمّا المومريلين فكان العثور عليه هو الأصعب. لوقت طويل كنت أتمثّله في شكل

1- «مومه» Muhme هي كلمة ألمانية قديمة بمعنى خالة، وكما يرد في النصّ كان بنيامين لا يعي معنى الكلمة في طفولته فكان يظنّ أنّ المقصود ليس هو الخالة ريلين بل شبحٌ اسمه Mummerehlen. المترجم.

Twitter: @ketab_n

المَعين الذي كان يسبح في قعر الطبق وسطَ بخار برغل الشعير أو دقيق الساغو. ببطء كنت أتوجّه نحوه بالملعقة. ما حكوه لي عنه -أو على الأغلب ما أرادوا أن يحكوه لي عنه- لا أعرفه. وهو نفسه لم يسرّ لي بأيّ شيء. ربّما لم يكن له أيّ صوت. كانت نظرته تسقط من الندف الحائرة للثلوج الأولى. لو صادفتني هذه النظرة ولو مرّة واحدة لكانت لي بمثابة سلوى طيلة حياتي.

Twitter: @ketab_n

مخابئ

كنت أعرف كلّ مخابئ البيت وأعود إليها كما أعود إلى البيت الذي يشعر فيه المرء بالأمان ويجد كلّ شيء كما كان عليه من قبل. كان نبض قلبي يتسارع وكنت أحبس أنفاسي. هنا كنت محاطاً بعالم الأقمشة. لقد أصبح هذا العالم واضحاً لي بصورة هائلة، واقترب منّي في صمت، مثلما يدرك الشخص الذي سيُشنَق معنى الحبل والخشب. الطفل الذي يقف خلف المدخل يتحوّل هو نفسه إلى شيء هائم وأبيض، إلى شبح. مائدة الطعام التي تكوّر مختبئاً تحتها تُحوّله إلى الصنم الخشبيّ للمعبد، حيث تكون أرجل المائدة هي أعمدته. وخلف أحد الأبواب يصبح هو نفسه أيضاً باباً، ويلبس البابَ كقناع ثقيل، مثل كاهن يصيب سحره من يدخل وهو في غفلة من أمره. يجب ألاّ يعثر عليه أحد، مهما كلّف الأمر. عندما يلعب بتعابير وجهه، يقولون له إنّ الأمر لا يتطلّب سوى أن تدقّ الساعة، فيثبت على حاله إلى الأبد. ما هو حقيقيّ في ذلك عرفتُه في المخبأ. فمن كان يكتشفني كان بإمكانه أن يجعلني أتسمّر كصنم تحت المائدة، أو أن أصبح إلى الأبد شبحاً ملفوفاً في الستارة، أو أن يأسرني طوال العمر في الباب الثقيل. لذا كنت أُخرج بصرخة مدويّة ذلك العفريت الذي يمسخني عندما يمسك بي من يبحث عنّي -نعم كنت أنتظر اللحظة وأهاجمه بصرخة تحرير الذات. كان المنزل ترسانة أقنعة. لكنّ مرّة واحدة في العام كانت تظهر في مواضع سريّة، في محاجر عيونها الفارغة وفمها المتسمّر، هدايا. آنذاك كانت الخبرة السحريّة تتحوّل إلى علم. فأزيل السحر عن منزل والديّ الكئيب بوصفي مهندسه وأبحث عن بيضات عيد الفصح.

Twitter: @ketab_n

شبح

كان ذلك في إحدى الأماسي في منزلنا الصيفيّ في بابلسبيرغ وأنا في السابعة أو الثامنة من العمر. وقفت إحدى خادماتنا لفترة أمام البوّابة الحديدية المؤدّية إلى شارع لا أتذكّره بالضبط. أغلقت الحديقة الكبيرة التي كنت ألعب في أطرافها البريّة أبوابها في وجهي. حان وقت الذهاب للنوم، وربّما كنت قد شبعت من لعبتي المفضّلة، وفي مكان ما على السور السلكيّ بين الحشائش صوّبتُ بالأسهم المطاطيّة لمسدّسي على الطيور الخشبية التي كانت تسقط من وقع ارتطام طلقة السهم بها من فوق القرص المثبّت على لوحة من أوراق الشجر المرسومة. كنت قد احتفظت طوال اليوم بسرّ -تحديداً بحلم الليلة الماضية. كان من الصعب عليّ وصف المكان الذي ظهر لي فيه هذا الشبح لكنّه كان شبيهاً بمكان معروف لي رغم كونه مستغلقاً عليّ. في الغرفة التي ينام فيها والداي كان ثمة ركن تغطّيه ستارة مخملية بلون بنفسجيّ باهت وخلفه تُعلَّق قمصان نوم أمّي. لا يُسبَر غور الظلمة الكائنة خلف المدخل: هذه الزاوية هي المقابل السيّئ السمعة للفردوس الذي يُفتتح بخزانة بياضات أمّي. أرفُف الخزانة، التي تعلوها حاشية بيضاء طُرّز عليها باللون الأزرق مقطع من مسرحية «الجرس» لشيلر، تحمل أغطية الأسرة وملاءاتها ومفارش الموائد ومناديل السفرة. وكان ينبعث أريج الخزامى من أكياس الطيب الحريرية الممتلئة التي كانت تتأرجح فوق الكسوة المتجعّدة لبابَي الخزانة من الداخل. لهذه الدرجة كان السحر القديم والغامض لهذه الأنسجة، هذا السحْر الذي سكن في الماضي دولاب المغزل، موزّعاً ما بين الجحيم والنعيم. كان الحلم آتياً إذن من ذاك الركن الجحيميّ: انشغل الشبح

Twitter: @ketab_n

بإطار خشبيّ عُلِّقت عليه ملابس حريرية. هذه الملابس سرقها الشبح. لم ينتزعها ولم يحملها معه ولم يفعل بها شيئاً في الواقع. ومع ذلك كنت أعرف أنّه سرقها مثل الناس الذين يشهدون في الأساطير وليمة للأشباح دون أن يروا هذه الأشباح تأكل وتشرب، ويدركون مع ذلك أنّ ما رأوه كان وليمة أشباح. هذا الحلم احتفظت به لنفسي.

في الليلة التي تلت الحلم لاحظت في ساعة غير معتادة -وكأنّ حلماً ثانياً يزجّ بنفسه في الحلم السابق- دخول والديّ إلى حجرتي. ولكنّني لم أرَ أنّهما قد حبسا نفسيهما في غرفتي. عندما صحوت في الصباح التالي لم يكن ثمة شيء نفطر به. والمنزل كان، بقدر ما فهمت، قد نُهِب. عند الظهر جاء الأقارب بالأشياء الضرورية. كانت عصابة مجرمين مكوّنة من عدّة أفراد قد تسلّلت إلى البيت ليلاً. وحسبما قيل، فقد كان من حسن الحظ أنْ كَشفَ الضجيج في البيت كبرَ حجم العصابة. استمرّت الزيارة الخطرة حتّى الصباح تقريباً. انتظر والداي بزوغ الفجر خلف نافذتي، آملين التمكّن من إعطاء أيّة إشارة للمارّة في الشارع، ولكنْ بلا جدوى. كان ينبغي عليّ أن أدلي بدلوي في الأمر. لكنّني لم أعرف شيئاً عن سلوك الخادمة التي وقفت مساءً أمام البوّابة الحديدية. وما كنت أظنّ أنّني كنت أعرفه أكثر -أي حلمي- تكتّمتُ عليه.

Twitter: @ketab_n

كانت البداية بشجرة التنّوب. ذات صباح عند ذهابنا إلى المدرسة التصقت بأركان الشوارع هذه الأختام الخضراء التي بدت وكأنّها تؤمّن المدينة في كثير من أركانها وأطرافها، مثل هديّة عيد ميلاد كبيرة. وفي يوم جميل انفجرت الأختام الخضراء لتنساب من داخلها لعب ومكسّرات وقشّ وزينة لأشجار عيد الميلاد: إنّها سوق عيد الميلاد، ومع هذه الأشياء انساب أيضاً شيء آخر، إنّه الفقر. ومثلما كانت التفّاحات والمكسّرات تُعرض في أسواق عيد الميلاد مزيّنة بشيء من الذهب الزائف إلى جانب حلوى اللوز، كذلك كانت الحال بالنسبة للفقراء الذين كانوا يبيعون الورق المفضّض والشموع الملوّنة في الأحياء الأرقى. كان الأغنياء يبعثون بأبنائهم لشراء دمى الخراف الصوفية الصغيرة من أبناء الفقراء أو لتوزيع الصدقات عليهم، إذ كانوا يخجلون من توزيعها بأنفسهم. في تلك الأثناء كانت شجرة عيد الميلاد التي اشترتها أمّي سرّاً وأدخلتها إلى البيت من السلّم الخلفيّ موجودة في الشرفة. أروع من كلّ ما كان يمنحه ضوء الشموع للشجرة هو كيف أنّ العيد القريب كان مع كلّ يوم يلتفّ بكثافة أكثر حول أغصانها. في الأفنية كانت آلات البيانولا تعمل على تمديد المهلة الأخيرة قبل العيد بأغاني الكورال. لكنّ تلك المهلة كانت تنقضي أخيراً، وتعيد إلى خاطري واحداً من تلك الأيّام التي أتذكّر هنا أبكرها.

انتظرت في غرفتي حتّى تقارب الساعة السادسة.لم يعرف عيد في حياتي اللاّحقة مثل تلك الساعة التي كانت مثل سهم يرتعش في قلب اليوم. كان الظلام قد حلّ ورغم ذلك لم أشعل المصباح كي لا أتحوّل بنظري عن

Twitter: @ketab_n

النوافذ المطلّة على الأفنية والتي كان يمكن أن أرى من ورائها الشموع الأولى. كانت اللحظة الأكثر إثارة من بين اللحظات التي يشهدها وجود شجرة عيد الميلاد هي عندما تضحّي بأوراقها الإبرية وفروعها لصالح الظلام، لكي لا تكون، عبرَ الشبّاك المغبّش لشقّةٍ في الفِناء، سوى كوكبة بعيدة المنال وقريبة في الأوان ذاته. وكما كانت هذه الكوكبة بين الحين والآخر تشفق على إحدى النوافذ المهجورة، في حين تبقى نوافذ كثيرة مظلمة وأُخرى، وهي أكثر حزناً، تذوي في ضوء المصباح الغازي لأوّل المساء، بدا لي أنّ نوافذ عيد الميلاد تجسّد الوحدة والشيخوخة والعوز -كلّ ما يتكتم عليه الفقراء. ثمّ فكّرت في توزيع الهدايا الذي كان والداي يهيّئان له. لكنّ ما كدت أبتعد عن النافذة بقلب وجل، مثلما هي الحال عند اقتراب تحقّق سعادة مؤكّدة، حتّى شعرت بوجودٍ غريبٍ في الغرفة، ولم يكن ذلك سوى ريح، بحيث كانت الكلمات التي تكوّنت على شفتيّ مثل ثنيات في شراع مرتخٍ قبل مجيء نسمة منعشة مفاجئة: «كلّ عام/ يأتي الطفل يسوع/ إلى الأرض مجدّداً/ حيثما نحن البشر». بهذه الكلمات وفيها كان الملاك قد بدأ بالتشكّل، ومعها أيضاً تلاشى. لكنّي لم أبقَ طويلاً في الغرفة الخالية، إذ دعوني إلى الغرفة المقابلة حيث كانت الشجرة في بهاء يجعلها غريبة عنّي، إلى أن تفقد قاعدتها وتطمرها الثلوج أو تلمع تحت زخّات المطر، فينتهي بذلك العيد الذي استهلّته آلة بيانولا.

Twitter: @ketab_n

كانت المدينة تعدني بها كلّ يوم من جديد وفي المساء تبقى مدينةً لي بوعدها. فإذا ما ظهرت، عند وصولي لموضع حدوثها، كانت تختفي على الفور مثل الآلهة التي ليس لديها سوى لحُيظات للبشر الفانين. واجهة عرْض منهوية، البيت الذي أخرجوا منه رجلاً ميتاً، ذلك الموضع من بلاط الشارع حيث سقط حصان –كنت أثبّتُ قدمي جيّداً في تلك الأماكن كي أشبع من تلك الأجواء الخاطفة التي خلّفها الحدث؛ لكنّه يكون ساعتها قد انقضى، مشتّتاً، تحمله ثلّة من الفضوليّين الذين كانوا يتيهون في مهبّ الريح. من يستطيع أن يجاري رجال المطافئ الذين تثقلهم عرباتهم التي تجرّها الخيل إلى أماكن حرائق مجهولة؟ من يستطيع النظر عبر النوافذ الحليبيّة اللون لعربات الإسعاف؟ على هذه العربات تنزلق وتهوي مصائب لا أستطيع اقتفاء آثارها. لكن ثمة عربات أكثر غرابة، كانت تحفظ سرّها بإصرار وكأنّها عربة غجر. ونوافذها كانت تبدو لي أيضاً مريبة. كانت قضبان حديديّة تبقيها منيعة. ورغم أنّ الفواصل بين هذه القضبان ضيقة جدّاً، بحيث لا يمكن لإنسان أبداً أن يحشر نفسه بينها، فأنا كنت أسترسل بخيالي متتبّعاً المجرمين الذين يقبعون محبوسين بداخلها، كما كنت أحكي لنفسي. لم أكن أعرف آنذاك أنّ هذه العربات كانت مخصّصة فقط لنقل الملفّات، لذلك لم أرَ فيها سوى صناديقَ شرور خانقة. لكنّ أيضاً القناة التي كان ماؤها معتماً وبطيئاً في جريانه وكأنّه محمّل بكلّ أحزان الناس، كانت تستوقفني أيضاً بين الفينة والأُخرى. عبثاً عقدَ كلّ جسر من جسورها خطوبته على الموت بطوقِ نجاة. كثيراً ما مررت بهذه الجسور فوجدتها لا تزال عذارى. وفي الختام تعلّمت أن أكتفي

Twitter: @ketab_n

باللوحات الإرشادية التي تعرض كيفيّة إنقاذ الغرقى. لكنّ تلك الوثائق ظلّت بعيدة عن متناول يدي بُعدَ تماثيل المحاربين الحجرية العالية في متحف برغامون[1].

في كلّ مكان كان ثمة مجال لحدوث المصيبة؛ أنا والمدينة كنّا على استعداد لأن نهيّئ لها مرقداً مريحاً، لكنّها لم تدع فرصة لرؤيتها في أيّ مكان. أجل، فيا ليتني كان بإمكاني أن ألقي نظرة عبر مَغالِق النوافذ الموصدة في مبنى مستشفى إليزابيت! لقد لاحظت أثناء مروري في شارع لوتزو أنّ بعض النوافذ مغلقة خلال النهار. وعند سؤالي عرفت أنّه في هذه الغرف يرقد من هم في حالة «مرضية خطيرة». عندما سمع اليهود عن ملاك الموت الذي علّم بيده على بيوت المصريّين الذين سيموت وليدهم الأوّل، فربّما كانوا قد فكّروا في تلك البيوت بهذا الفزع الذي تملّكني إزاء هذه النوافذ التي بقيت مَغالقها موصدة. لكنّ هل قام ملاك الموت فعلاً بمهمّته؟ أم أنّ النوافذ قد فُتحت في يوم ما ووقف المصاب بالمرض الخطير كمُتَعاف، مطلاً من النافذة؟ ألم يكنّ ممكناً تقديم العون للموت أو للنار أو حتّى للبَرَد الذي كان يقرع نافذتي، دون أن يتمكّن أبداً من اختراقها؟ وهل من المدهش أنّه عندما وقعت المصيبة والجريمة أخيراً، أفنت هذه التجربة كلّ ما يحيطها -أجل، حتّى تلك العتبة ما بين الحلم والواقع؟ وهكذا لم أعد أعرف إن كان الحلم هو مصدرها أم أنّها فقط تعاود الظهور فيه كثيراً. في كلّ حالة كانت لحظة التلامس مع «السلسلة» حاضرة.

1- يعرض متحف برغامون في برلين تاريخ الحضارات القديمة كالحضارتين الآشورية والإغريقية. المترجم.

Twitter: @ketab_n

«لا تنسَ أن تضع السلسلة أوّلاً»، هكذا كان يقال لي عندما يُسمح لي بفتح الباب. بقي الخوف من قدَم تَحول دون إغلاق الباب وفيّاً لي منذ الطفولة. وفي وسط هذه المخاوف اتّسع بلا نهاية كعذاب الجحيم هذا الذعر الذي كان يطرأ لأنّ السلسلة غير موجودة. في غرفة مكتب والدي وقف رجل. لم يكن هندامه سيئاً ولم يلحظ على ما يبدو حضور أمّي، وكأنّها كانت هواءً. فما بالك بحضوري أنا في الغرفة المجاورة. النبرة التي كان يتحدّث بها ربّما كانت مهذّبة ولم تكن على الأغلب مهدِّدة كثيراً. لكنّ الخطير كان هو ذلك السكون عندما يصمت. لم يكن في ذلك المنزل هاتف. حياة أبي معلّقة إلى شعرة. ربّما لن يدرك هو ذلك، وأثناء قيامه من المكتب الذي لم يجد وقتاً لمغادرته من أجل طرد السيّد الذي اقتحم المنزل وثبّت قدميه فيه، يسبقه هذا الأخير ويغلق باب الحجرة ويضع مفتاحها في جيبه. يقُطَع على أبي طريق الانسحاب، فيما يظل الآخر لا يولي أيّ اهتمام بأمّي. أجل، المفزع فيه هو طريقته في تجاهلها وكأنّها كانت في تحالف معه هو القاتل والمبتزّ.

ولأنّ هذه المحنة الأكثر كآبة قد مرّت دون أن تخلّف لي أيّة إشارة لحلّ لغزها، كان لديّ تفهّم دائم للشخص الذي يلجأ لأوّل جهاز إنذار للحريق. مثل هذه الأجهزة تقف في الشارع كالهياكل التي يتضرّع أمامها المرء لإلهة الكوارث. ثمّ تخيّلت أنّ الدقيقة السابقة على قدوم عربة المطافئ أكثر إثارة من ظهورها، تلك الدقيقة التي ينصت فيها المرء كعابر وحيد لصفّارتها المدوّية البعيدة. لكنّ في معظم الأحيان يفوتك عند سماعها الجزء الأفضل من الكارثة. لأنّه حتّى في حالة الحريق، لم تكن ترى شيئاً من النار. لقد بدا وكأنّ المدينة ترعى الشعلة النادرة بحرص وغيرة،

Twitter: @ketab_n

وتغذّيها في عمق الفناء أو على السطح، وتحسد أيّ شخص على نظره لهذا الطائر الملتهب الرائع الذي ربّته بنفسها. كان رجال المطافئ يأتون أحياناً من داخل الحريق، لكنّ لم يبدُ وكأنّهم يستحقّون النظرة التي كان يتوجّب أن يكونوا جديرين بها. وعندما يأتي فوج ثانٍ منهم بالخراطيم والسلالم والسخّانات، يبدو وكأنّ الأمور قد أخذت بعد المناورات المتعجّلة الأولى التراخي ذاته، وفريق الإمداد القويّ المزوّد بالخوَذ كان بالأحرى حامي نار غير مرئية أكثر من كونه عدوّها. في معظم الأحيان لم تكن تأتي عربة أُخرى، بل كنّا نلاحظ فجأة أنّ الشرطة قد اختفت والحريق قد أُخمد. ولم يكن أحد يرغب في الجزم بأنّه كان قد اندلع.

Twitter: @ketab_n

الألوان

كان في حديقتنا مقصورة مهجورة ومتهالكة. وكنت أحبّها بسبب نوافذها الملوّنة. وعندما أنتقل داخلها من نافذة لأُخرى كنت أتحوّل، أتلوّن حسب المنظر البادي من النافذة والذي سرعان ما كان يتغيّر من التوهّج إلى الغبرة، ومن الكمون إلى الخضرة الوارفة. كان الأمر بالنسبة لي كالرسم بالألوان المائيّة، حيث كانت الأشياء تفتح لي حجرها بمجرّد أن أغمرها بسحابة رطبة. شيء مشابه كان يحدث لي مع فقاعة الصابون. كنت أرحل فيها عبر الغرفة وأمتزج بلعبة ألوان قبّتها حتّى تنفجر. كنت أتيه في الألوان أثناء تأمّلي للسماء أو لقطعة من الحلي أو مطالعتي لكتاب. يبحث الأطفال دائماً عن غنيمتهم. في الماضي كان بالإمكان شراء شوكولاتة في لفافة مربوطة بصورة متقاطعة وبداخلها كانت كلّ قطعة شوكولاتة ملفوفة بشكل منفصل في ورق قصدير ملوّن. هذا البناء الصغير الذي كان يكتسب تماسكه من خيط ذهبيّ خشن، كان يزهو بألوان ذهبية وزرقاء وبرتقالية، وحمراء وفضيّة لكلّ قطعة: ولم يحدث قطّ أن كانت قطعتان من اللون نفسه متجاورتين. من وسط هذه الفوضى البرّاقة انهالت الألوان عليّ ذات يوم. ولا زلت أستطعم الحلاوة التي تشبّعت بها عيناي آنذاك. كانت تلك حلاوة الشوكولاتة التي بها كادت تذوب الألوان في قلبي أكثر منها على لساني. فقبل أن أهوي صريعاً لإغواء الحلوى، كانت الحاسّة الأسمى تتفوّق على الحاسّة الدنيا وتنقلني إلى عالم آخر.

Twitter: @ketab_n

لم يعد المغزل الذي أصابت إبرته الأميرة النائمة وأغرقتها في سبات دامَ مائة عام مألوفاً لدينا. لكنّ مثلَ الملكة، أمّ «بيضاء الثلج»، كانت أمّنا تجلس بعدّة خياطتها أمام الشبّاك أثناء هطول الثلوج، إلاّ أن قطرات الدم الثلاث لم تسلّ من إصبعها، لأنّها كانت تضع أثناء عملها كشتباناً. بالمقابل كان لقبّة الكشتبان لون أحمر باهت وتزيّنها ثقوب صغيرة تبدو وكأنّها آثار وخزات سابقة. وإذا ما وضعته في الضوء كان يتوهّج عند طرف تجويفه الداكن الذي تعرف سبّابتنا طريقها فيه جيّداً. كنّا نحبّ الاستحواذ على هذا التاج الصغير الذي يمكنه أن يتوّجنا في الخفاء. عندما كنت أضعه على إصبعي، كنت أدرك معنى اللقب الذي كانت الخادمات تنادي به أمّي، كنّ ينادينها: gnädige Frau، أي «سيّدتي»، لكنّهنّ كن ينطقن الكلمة مشوّهة فتخرج Nähfrau، أي سيّدة الخياطة. لا يمكن العثور على أيّ لقب آخر يمكنه أن يجسّد لي أكثر من هذا اللقب السلطة المطلقة التي كانت تتمتّع بها أمّي.

مثل كلّ مقرّات الحُكم، كان مقرّها عند منضدة الخياطة يتمتّع بنفوذه الخاصّ. أحياناً كنت أشعر بهذا النفوذ. كنت أقف في محيطه دون حراك ومحبوس الأنفاس. تكتشف أمّي -سواء أكان ذلك قبل أن تسمح لي بالذهاب معها لزيارة ما، أو للتسوّق- شيئاً يحتاج إلى تعديل في ملبسي، فتمسك عندئذ بكمّ بذلة البحّارة التي أكون قد أدخلت ذراعي فيها لكي تثبّت خياطة طرف الكمّ المطوّق للمعصم بلونَيه الأزرق والأبيض، أو تعطي ببعض الغرَز الصغيرة لإنشوطة البحّار ثنيتها المميّزة. كنت ساعتها أقف

Twitter: @ketab_n

وأمضغ الشريط المطّاطيّ المعروق لقبّعتي والذي كان طعمه حامضاً في فمي. في مثل تلك اللحظات، ولكون أدوات الخياطة كانت تتحكّم فيّ بشدة، كان عنادي وضجري يبدآن في الإعلان عن نفسيهما. ليس فقط لأنّ العناية بهذه البذلة التي أرتديها كانت بمثابة اختبار قاس لصبري -لا بل بالأحرى لأنّ ما يُعتزَم القيام به حيالي لا يتناسب إطلاقاً مع ذلك الحشد من قصاصات الحرير الملوّنة والإبر الدقيقة والمقصّات المختلفة الأحجام الموضوعة أمامي. وكان يساورني شكّ في ما إذا كان ذلك الصندوق مصنوعاً في الأصل للخياطة. ونظراً لأنّ بكرات الخيوط كانت تعذّبني بغوايتها الشرّيرة، فقد زاد هذا الشكّ لديّ. كان هذا التجويف المفرغ في البكرات هو مصدر الغواية، فهو كان أساساً المحور الذي تلتفّ حوله الخيوط على البكرة. فيما بعد صارت هذه الفجوة مغطّاة من الجانبين بعلامة سوداء عليها نقش ذهبيّ باسم الشركة وبرقم ما. كان الإغراء كبيراً جدّاً في أن أضع أطراف أصابعي وسط العلامة وكان ارتياحي عميقاً جدّاً عندما كنت أمزّقها وألمس الثقب الذي تحتها. إلى جانب المنطقة العليا في الصندوق حيث تقبع هذه البكرات، وتلمع حافظات الإبر والمقصّات المحفوظة في أغمادها الجلدية، كانت هناك أيضاً أعماقه المظلمة، تلك المنطقة المهجورة التي تحكمها كرات من الخيوط السائبة وحيث ترقد جنباً إلى جنب بقايا من أربطة مطاطيّة ودبابيس مشابكَ وقصاصات حريرية. كما إنّ الأزرار كانت ضمن هذه البقايا المنبوذة. بعض أشكال هذه الأزرار لم يُرَ قطّ في أيّ ملبس. بعد ذلك بوقت طويل جدّاً عثرت على شيء مشابه لها، لقد كانت عجلات عربة إله الرعد ثور، حسبما صوّرها أستاذ غير معروف في أحد الكتب المدرسية في منتصف القرن التاسع عشر. تطلّب الأمر سنوات عديدة حتّى وجدتُ شكوكي في

Twitter: @ketab_n

أنّ هذا الصندوق بأكمله مخصّص لشيء آخر غير الخياطة ما يؤكّدها، وذلك عبر صورة صغيرة باهتة.

أمّ «بيضاء الثلج» تحوك، وفي الخارج تتساقط الثلوج. كلّما ساد الهدوء في البلاد زاد ذلك من تكريم هذا العمل المنزليّ الأكثر هدوءاً. وكلّما أظلمت الدنيا مبكّراً، كثرَ استعمالنا للمقصّ. قضت أعيننا ساعة وهي تتبع الإبرة التي تدلّى منها خيط صوفيّ سميك. وبدون أن نتحدّث عن ذلك أخذ كلّ طفل منّا الأشياء التي كان سيخيطها -أطباق ورقيّة وممحاة حبر وجراب جلديّ- وقام بخياطة زهور فيها. وأثناء ما كان الورق يعيد للإبرة طريقها عبر قرقعة خفيضة كنت أستسلم من حين لآخر لغواية التحديق في شبكة الخيوط التي تشكّلت في القفا، والتي كانت تصبح أكثر تشتّتاً، مع كلّ غرزة تقرّبني من هدفي.

Twitter: @ketab_n

الضوء الذي يهّمي من القمر لا مكان له في مسرح وجودنا النهاريّ.

المحيط الذي يضيئه بصورة مضلّلة يبدو أنّه ينتمي لكوكب أرضيّ مضادّ أو مجاور. ليست الأرض هي التي يدور القمر حولها كتابع، بل هي نفسها تحوّلت إلى تابع للقمر. صدرها الواسع، الذي كان نَفَسُه هو الزمن، لم يعد يتحرّك. أخيراً عاد الخلق إلى موطنه وصار يمكنه ارتداء وشاح الأرامل الذي مزّقه النهار. فهمت ذلك من شعاع الضوء الشاحب الذي كان يمرق إليّ عبر ألواح مَغالِق النوافذ. صار نومي قِلقاً: مزّقه القمر بمجيئه وذهابه. عندما كان يحضر في الغرفة وأصحو، كنت أصبح طريداً، إذ بدا وكأنّه لا يريد أن يؤْوي أحداً معه. حوضا الفسيل بلونهما السكّريّ كانا أوّل شيء يقع عليه نظري. خلال النهار لم يكن يخطر لي أبداً أن أتوقّف عندهما. لكنّ في ضوء القمر كان الشريط الأزرق الذي يلفّ الجزء الأعلى من الحوض مصدراً للإزعاج. كان يعطي انطباعاً خادعاً بأنّه من النسيج ويتخلّل ذيل تنورة، وفي الواقع كانت حافّة الحوضين مثنيّة مثل كشكش. في وسطهما وقف إبريقان منتفخان من نوع البورسلين ذاته، وبزخرفة الزهور نفسها. عندما كنت أقوم من سريري كانا يصلصلان، وهذه الصلصلة وجدت لنفسها أرضاً خصبة في اللوح الرخاميّ لمائدة الفسيل وآنياتها. وبقدر فرحي لسماع إشارة حياة في محيطي الليليّ حتّى ولو كانت صدى لي أنا نفسي، كانت رغم ذلك إشارة لا يُعوَّل عليها وكانت تنتظر لتخدعني مثل صديق مزيّف. حدث هذا عندما رفعت يدي بالإبريق لأصبّ كوباً من الماء. قرقرة المياه، وهذا الصوت الذي وضعت به الإبريق أوّلاً ثمّ الكوب جانباً -كلّ هذا ارتطم بأذني كتكرار. لأنّ كلّ مواضع هذه

Twitter: @ketab_n

الأرض المجاورة التي انتقلتُ إليها، بدت في حوزة الماضي. وكان عليّ أن أعلن رضوخي داخلها، فإن ذهبت للسرير كنت أخاف دائماً أن أجدني مستلقياً فيه بالفعل.

وكان خوفي لا يهدأ تماماً إلاّ عندما أشعر مجدّداً بملامسة ظهري للفراش. عندها كنت أنعس، وينسحب ضوء القمر ببطء من غرفتي. وكثيراً ما كانت الفرفة تغرق في الظلام عندما أصحو للمرّة الثانية أو الثالثة. كانت اليد هي أوّل من يتشجّع للغوص في خندق النوم لتحتمي به من الحلم. ولكنْ عندما يهدّئ ضوء الليل من روعها وروعي، يتبيّن أنّه لا يتبقى من العالم سوى سؤال مستعص، هو التالي: لماذا يوجد شيء في العالم؛ ولماذا العالم؟ باندهاشٍ أدركت أنّ لا شيء يمكنه أن يرغمني على التفكير في العالم. إنّ عدم وجوده لم يكن ليتراءى لي أكثر ريبة من وجوده الذي بدا أنّه يغض الطرف عن عدمه. عند بزوغ القمر، ليس للبحر وقارّاته إلاّ ميزات قليلة أمام حوض غسيلي. لم يتبقّ شيء من وجودي أنا سوى رواسب الهجران.

Twitter: @ketab_n

فرقتان للموسيقى النحاسية

لم تمتلك الموسيقى أبداً شيئاً وحشيّاً ومخزياً مثل ألحان الأوركسترا العسكرية التي كان يتحرّك على وقعها تيّار البشر المتدفّق على امتداد «جادّة النميمة»[1] ما بين مقاهي ومطاعم حديقة الحيوان. اليوم صرت أفهم سرّ العنف الكامن في ذلك التيّار.

بالنسبة لأهالي برلين لم يكن ثمة مدرسة أكبر للحبّ من تلك التي كانت تحيطها الساحات الرملية لحيوانات النو والحمُر الوحشية والأشجار العارية والصخور التي تعشّش فيها طيور الرخم ونسور الكوندور، وأقفاص الذئاب النتنة الرائحة وأماكن تفقيس طيور القوق والبلشون. كانت أصوات هذه الحيوانات تختلط مع ضجيج قرع الطبول النقّارية وآلات الإيقاع. كانت هذه هي الأجواء التي سعى فيها الصبيّ لتسليط نظرته للمرّة الأولى على فتاة عابرة، فيما كان يتحدّث بحماس أكبر مع صديقه. ونظراً لأنّه قد بذل جهداً مضنياً جدّاً كي لا تفضحه نبرة صوته أو نظرته، فلم يرَ من تلك العابرة شيئاً.

في فترة سابقة على ذلك بكثير تعرّفَ على موسيقى نحاسية أُخرى. وشتّان بين الاثنتين: هذه التي تتهادى بإثارة وفتنة تحت أسقُف التعريشات والخيام، وتلك الأقدم، المرحة الصاخبة في الأجواء الباردة وكأنّها تُعزَف تحت ناقوس زجاجيّ. إنّها كانت تنبعث من جزيرة روسو Rousseau وتلهب حماس ممارسي رياضة التزلّج إذ يرسمون بحركاتهم عبرَ البحيرة الجديدة دوائرَ وزَخارف. أنا أيضاً كنت بينهم، وذلك قبل أن أحلم بمعرفة أصل اسم الجزيرة بوقت طويل، ناهيك عن صعوبات

1- بالألمانيّة: Die Lästerallee ، سمّيت كذلك لأنّها كانت مصفوفة على جانبيها مصاطب وكراسٍ يقوم الفضوليّون الجالسون عليها بالتعليق على المارّة بقسوة وبلا احتشام. المترجم.

Twitter: @ketab_n

كتابته. نظراً لموقعه لم يكن مضمار التزلّج ذاك ليُضاهيه أيّ مضمار آخر، بالإضافة إلى استمرارية الحياة فيه عبر فصول السنة. فماذا كان يفعل الصيف بالمضامير الأخرى؟ يحوّلها إلى ملاعب لكرة المضرب. تحت أغصان الشاطئ الطويلة المائلة امتدّت البحيرة نفسها التي كانت تنتظرني مؤطّرةً في غرفة الطعام المظلمة في بيت جدّتي. فالفنّانون كانوا يحبّون آنذاك رسم البحيرة بمتاهات جداولها المائيّة. والآن ينزلق المرء على أنغام فالس فيينّاويّ تحت الجسور ذاتها التي كنّا نقف على حاجزها في الصيف ونتأمّل العبور المسترخي للقوارب عبر مياه البحيرة الداكنة. كان ثمّة طرق ملتوية خصوصاً بالقرب من الملاجئ المعزولة -أي المقاعد «المخصّصة للكبار فقط». الحوض الدائريّ المحيط بملاعب الرمل كان مخصّصاً للصغار يحفرون في وسطه أو يقفون غارقين في أفكارهم حتّى يدفعهم طفل آخر أو حتّى تنادي المربّية من مقعدها حيث تقرأ روايتها الرخيصة خلف عربة الأطفال، وتقريباً دون أن ترفع عينيها عن الكتاب، تؤدّب الطفل.

هذا ما كان من أمر هذه الشواطئ. لكنّ البحيرة كانت تحيا في داخلي مع إيقاع الأقدام الثقيلة بفعل أحذية التزلّج، أقدام تتحسّس الأرضية الخشبية مجدّداً بعد دورة تزلّج على الجليد، وتقرقع في كوخ تتوهّج فيه المدفأة الحديدية. وبالقرب من المدفأة كان المقعد الذي كنّا نختبر عليه مجدّداً حمولة أقدامنا قبل أن نقرّر فكّ أربطة أحذيتنا. فإذا ما استقرّت الفخذ على الركبة وبدأ حذاء التزلّج ينخلع من القدم، كنّا نحسّ وكأنّ أجنحة قد نبتت لدينا في كلا الكعبين وبخطى تومئ بتحيّة للأرضية المتجمّدة كنّا نخرج للهواء الطلق. ومن الجزيرة كانت الموسيقى ترافقني لبعض الوقت في طريق العودة إلى المنزل.

Twitter: @ketab_n

القزم الأحدب

طوال سنواتي الأولى كنت أحبّ عند خروجي للتنزّه النظر عبر شبكات حديدية أفقية في الأرض، وهذه الشبكات كانت تتيح لي أيضاً الوقوف أمام إحدى واجهات العرض، خصوصاً إذا ما كان في أسفلها مسقط. كانت وظيفة هذا المسقط تزويد كوى التهوية في عمق القبو بشيء من الضوء والهواء. لم تكن الكوى تقود إلى الهواء الطلق بل بالأحرى إلى العالم السفليّ. من هنا جاء فضولي الذي جعلني أنظر عبر قضبان كلّ شبكة أضع قدمي عليها علّني أفوز برؤية عصفور كناريّ أو مصباح أو أحد سكّان الطابق السفليّ. وإذا كنت قد سعيت لذلك جاهداً خلال النهار بلا جدوى، فقد تنقلب الأمور ضدّي أحياناً في الليلة التالية وفي الحلم تستهدفني نظرات من ثقوب القبو تلك تريد تثبيتي. كانت تقذف بأقزام يعتمرون قلنسوات مدبّبة، وبمجرّد أن يثيروا فزعي حتّى النخاع يختفون على الفور. لذلك كنت على دراية جيّدة بالأمر، عندما قرأت ذات يوم في «كتاب الأطفال الألمانيّ» هذا البيت: «إن أردت الذهاب إلى قبوي/ لأصبّ كؤيس نبيذي/ يقف هناك قزم أحدب/ يخطف منّي قارورتي». كنت أعرف هذه العشيرة المهووسة بالأضرار والمقالب وبالطبع كان معروفاً لديّ أنّها تحسّ بأكبر راحة في القبو. لقد كانوا «أوباشاً». ومن النوعيّة نفسها كان رفاق الليل الذين ينقضّون على جبال البندق وعلى الديك والدجاجة: إبر الخياطة وإبر التطريز التي تنادي: «سيسود على الفور ظلام حالك». كانوا يعرفون غالباً أشياء أكثر عن الأحدب. أمّا هو فلم يقترب منّي. الآن فقط أعرف كيف كان يُدعى. أمّي ألمحت لي بذلك. عندما كنت أكسر شيئاً أو يقع شيء على الأرض، كانت تقول لي: «الأخرق

Twitter: @ketab_n

يبلغك التحية». والآن أفهم عمّن كانت تتحدّث. لقد كانت تتحدّث عن القزم الأحدب الذي رآني. من ينظر له هذا القزم لا ينتبه، ويقف مرتبكاً أمام كومة من حطام: «إن أردت الذهاب إلى مُطيبِخي/ لأطهوَ حسائي/ يقف هناك قزم أحدب/ يكسر قدْري». وحيثما كان يظهر لا تبقى لي سوى خيبة الأمل. خيبة أمل تقلّصت معها الأشياء، فتحوّلت الحديقة خلال العام إلى حُديقَة، وحجرتي أصبحت حُجيرة ومقعد الحديقة صار مُقيعداً. لقد تضاءلت الأشياء وكانت كأنّما نمت لها حدبة، ما جعلها ملْكاً لذلك القزم. وتراءى لي أنّ القزم موجود في كلّ مكان. كان يسبقني ويعترض طريقي. لكنّ بخلاف ذلك لم يكن هذا الحاكم الرماديّ الأثواب ليفعل لي أيّ شيء آخر، سوى أنّه كان يقتطع منّي نسيان النصف من كلّ شيء أقترب منه: «إن أردت الذهاب إلى حُجيرَتي/ لآكل حلاوتي/ يقف هناك قزم أحدب/ ويكون قد أكل نصفها». هكذا وقف القزم كثيراً. كان يراني في مخبئي، أو أمام قفص ثعلب الماء في الصباحات الشتويّة أو أمام الهاتف في ممرّ المطبخ، في براوهاوسبيرغ مع الفراشات أو على مضمار التزلّج مع الموسيقى النحاسية. لقد اعتزل منذ وقت طويل. لكنّ صوته الذي يشبه طنين فتيلة المصباح الغازيّ يهمس لي عبر عتبة القرن بالكلمات التالية: «يا صغيري، أرجوك/ صلّ أيضاً لأجل القزم الأحدب!».

Twitter: @ketab_n

ملحق

نصوص متفرّقة من صيَغ سابقة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حفلة

كان لدى أمّي حلية بيضاوية الشكل. كانت كبيرة بحيث لا يمكن وضعها على الصدر، هكذا كانت تظهر في كلّ مرّة تضعها فيها على حزامها. لكنّها كانت ترتديها عند ذهابها للحفلات، وفي البيت فقط عندما نقيم حفلة. ازدانت الحلية في وسطها بحجر كريم كبير أصفر برّاق يحيطه عدد من الأحجار أكبر منه بقليل بألوان كثيرة -أخضر وأزرق وأصفر ووردي وقرمزي. كانت الحلية تثير فيّ البهجة كلّما رأيتها. فوسط ألف من ألسنة اللهب الصغيرة التي تشتعل من أطرافها، كنت أسمع بوضوح موسيقى راقصة. كانت الدقيقة المهمّة التي تأخذها فيها أمّي من العلبة تجعلها تظهر بقوّة مزدوجة. لقد كانت لي هي الحفل الذي كان مكانه في الحقيقة وشاح أمّي. وكانت هي أيضاً تعويذتي التي تحمي أمّي على وجه الخصوص من كلّ تهديد خارجيّ. وفي حمايتها كنت آمناً.

لكنّ التعويذة لم تكن تستطيع الحيلولة دون وجوب ذهابي للنوم في الأيّام التي تُخرَج فيها الحلية. وكان ضجري يصبح مزدوجاً عندما تكون الحفلة في بيتنا. لكنّ الحفلة كانت تتخطّى عتبة حجرتي وكنت على تواصل دائم معها بمجرّد أن يرنّ أوّل جرس. لفترة يظلّ الجرس يزعج الردهة بشكل شبه متواصل. لكنّ ذلك لم يكن أقلّ تهديداً لكون رنّته أقصر وأكثر تحديداً منها في الأيّام الأُخرى. لم يكن يخفى عليّ أنّ الجرس كان آنئذٍ يعلن مطالب تفوق كثيراً مطالبه في العادة. ووفقاً لذلك كان الباب يُفتح فوراً وبلا صخب. ثمّ تأتي اللحظة التي ما يكاد فيها جمع الحفل يلتئم حتّى يصير على وشك الانفضاض.

Twitter: @ketab_n

وفي الحقيقة فإنّهم يكونون قد انسحبوا إلى الغرف البعيدة لكي يختفوا هناك وسط الضوضاء الخافتة ووقع الخطى الكثيرة والأحاديث المتناهية، مثل وحش لم تكد الأمواج تقذفه إلى الشاطئ حتّى هرع ليجد ملجأً في طينه الرطب. وكنت أشعر أنّ ما يملأ الغرفة هو شيء غير محسوس ومراوغ وقادر في أيّ لحظة على خنق أولئك الذين كان هو يجتذبهم إلى أجواء الحفل. القميص اللاّمع كالمرآة الذي كان أبي يرتديه في مثل تلك الليلة كان يتراءى لي كالدرع، ومن النظرة التي يتفقّد بها المقاعد الخالية من البشر قبل ذاك بساعةٍ كنت أكتشف رجلاً مسلّحاً من أجل المعركة.

في تلك الأثناء يكون تناهى إليّ ضجيج: اللامرئيّ صار أقوى وبدأ يحادث نفسه في كلّ أعضائه. كان يتنصّت إلى همس ذاته الخفيض مثلما ينصت المرء لمحارة، ويتشاور ونفْسَه مثل أوراق شجر في الريح، ويهسهس مثل قطعة حطب في المدفأة ويغرق بلا صوت في ذاته. وتحين اللحظة التي أندم فيها على تمهيدي الطريق قبل ساعات لما لا يمكن التنبّؤ به. لقد حدث ذلك بحركة واحدة جعلت شطرَي مائدة الطعام يتباعدان أحدهما عن الآخر ويخرج اللّوح المخفيّ وينبسط ليصل مجدّداً بين شطرَي المائدة بحيث تتّسع لكلّ الضيوف. ثمّ يُسمَح لي بالمساعدة في تجهيز المائدة وفرْشها. ولم يكن يقتصر الأمر على أن تحظى يدي بشرف وضع أدوات مائدة من قبيل ملاعق الكركند أو سكاكين المحار، بل حتّى أدوات المائدة العاديّة تظهر بشكل احتفاليّ. الكؤوس بأنواعها ككؤوس النبيذ الخضراء وكؤوس نبيذ البورت القصيرة الرقيقة وكؤوس الشمبانيا المزركشة والمالِح على شكل براميل صغيرة من الفضّة، وسدّادات القناني على شكل عفاريت معدنية ثقيلة أو حيوانات. ثمّ أخيراً تحين اللحظة التي يُسمَح لي فيها بأن

Twitter: @ketab_n

أضع على كلّ كأس من الكؤوس الكثيرة، بجانب كلّ طقم مائدة، بطاقةً تحدّد للضيف مكان جلوسه. بوضع هذه البطاقة الصغيرة أكون قد توّجت عملي. وعندما أطوف في الختام بنظري حول المائدة التي لم يعد ينقصها سوى بضع كراسٍ، عندئذ فقط تسري في داخلي إشارة سلام صغيرة، تغمز لي بها الأطباق كلّها. كانت زهور القنطريون العنبريّ هي النقش الصغير الذي يزيّن أطقُم المائدة المصنوعة من البورسلين الأبيض النقيّ: إشارة سلام لا تُقدّر حلاوتها إلاّ النظرة التي أُلفت إشارات الحرب التي كنت أواجهها طوال الأيام الأُخرى.

أفكّر في البُصَيلات الزُّرق المنقوشة، وكم ناشدتها أن تساندني خلال الصراعات التي نشبت على المائدة التي تبرق أمامي الآن! أذعنت مرّات لا تحصى لأغصانها ومستودع لقاحها وزهورها ولزخرفها الحلزونيّ، أذعنت لها أكثر من إذعاني لأجمل صورة على الإطلاق. لم يسعَ أحدٌ أبداً إلى صداقة بمثل هذا الإخلاص الذي خطبتُ به ودّ البُصَيلات الزُّرق. كنت سأتّخذها حليفاً في الصراع غير المتكافئ الذي كان ينغّص عليّ طعام الغداء. لكنّ ذلك النقش كان قابلاً للرشوة مثل جنرال من الصين، مسقط رأس هذا النقش أيضاً. التكريم الذي كانت تغدقه عليه أمّي والاستعراضات التي كانت تستدعي بها الطقم، والنواح الذي كان ينمى انطلاقاً من المطبخ كلّ من ينكسر من الفريق جعل مساعيّ من أجل كسب ودّه بلا أمل. لأنّ نقش البُصيلات كان يقاوم نظرتي ببرود ودناءة، وما كان سيرسل ولو بتّلة واحدة من أجل حمايتي.

كان المنظر الاحتفاليّ للمائدة يحرّرني من ذلك النقش المميت، وهذا

Twitter: @ketab_n

وحده كان يمكن أن يكون كافياً لبهجتي. لكنّ كلّما اقترب زحف المساء خمدت تلك الغبطة وذلك اللّمعان اللّذان كان قد وعدني بهما منظر المائدة منذ الظهيرة. وعندما كانت أمّي، مع وجودها في البيت، تمرّ عليّ مروراً خاطفاً لتقول لي: «تصبح على خير»، كنت أشعر بشكل مضاعف بالهديّة التي كانت تضعها لي في العادة في مثل هذا الوقت على الغطاء: معرفة عدد الساعات التي ظلّ اليوم يحتفظ لها بها، والتي كنت آخذها معي في نعاسي لتواسيني مثلما كنت آخذ الدمية في السابق. تلك الساعات التي كانت تسقط سرّاً ودون أن تعرف أمّي في ثنيات الغطاء الذي كانت تفرشه عليّ، تلك الساعات بعينها كانت تواسيني حتّى في الأماسي التي تخرج فيها أمّي، عندما تلامسني في هيئة الدانتيلا السوداء لشالها الذي تكون وضعتْه على رأسها. كنت أحبّ هذا القرب، وما كان يمنحه لي من عطر: كلّ فترة زمنية كنت أفوز بها في ظلال ذلك الشال وفي جوار الحجر الكريم الأصفر البرّاق كانت تسعدني أكثر من ملبّس المفاجآت الذي كانت أمّي تعدني به مع قبلة الصباح الباكر. وعندما كان يناديها أبي، لم يكن يسعني إلاّ أن أشعر بمزيد من الفخر لأنّني سأتركها تخرج بكلّ ذلك البريق إلى الحفل. ودون أن أدرك تماماً، كنت أشعر في سريري قبيل النعاس بحقيقة لغز صغير مفاده أنّه «كلّما طالت الأمسية كان الضيوف أروع».

Twitter: @ketab_n

كانت الصُّوانة هي الخزانة الأولى التي تنفتح، متى شئت أنا ذلك. كلّ ما كان عليّ هو أن أجذب المقبض فيندفع بابها في مواجهتي. تحت كلّ القمصان والسراويل والثياب الداخلية التي كانت محفوظة فيها، ولم أعد أعرف عنها شيئاً، كان هناك الشيء الذي لم يتغيّر والذي جعل الدخول إلى هذه الخزانة يبدو لي جذّاباً وينطوي على شيء من المغامرة. كان عليّ أن أشقّ طريقاً حتّى آخر زاوية فيها، ثمّ أعثر على الجوارب التي رقدت مكوّمة وملفوفة بطريقة تقليدية على شكل كرات. كلّ زوج منها كان يبدو مثل حقيبة صغيرة. لم يكن ثمة شيء أكثر متعة من أن تغوص يدي إلى أقصى عمق ممكن في داخلها. لم أكن أفعل ذلك من أجل الحصول على دفء نسيجها الصوفيّ فحسب. كان الشيء «المجلوب» الذي تمسك به يدي دائماً في الداخل الملفوف هو ما يجذبني إلى العمق. وعندما أُطبِق عليه قبضتي وتؤكّد لي قواي أنّ هذه الكتلة الصوفيّة الناعمة صارت في حوزتي، يبدأ الجزء الثاني من اللعبة، والذي يؤدّي إلى الكشف المثير. لأنّني في تلك الأثناء كنت أعمل على سحب الشيء «المجلوب» من حقيبته الصوفية؛ كنت أسحبه ناحيتي أكثر فأكثر، حتّى يحدث ما هو مذهل: بمجرّد أن يفقد «المجلوب» حقيبته يصبح هو أيضاً غير موجود. لم أشبع من اختبار هذه الحقيقة الملغزة بالقدر الكافي: وهي أنّ الشكل والمضمون، الغطاء ومحتواه، «المجلوب» والحقيبة هما شيء واحد. شيء واحد هو في الحقيقة شيء ثالث: إنّه هذا الجورب الذي تحوّل كلاهما إليه. وإذا ما فكّرت في حقيقةِ أنّني كنت لا أشبع من استحضار هذه الإعجوبة، فسأجدني واقعاً في غواية أن أجد في حيلتي هذه نظيراً للحكايات الخيالية التي كانت

Twitter: @ketab_n

تدعوني أيضاً إلى دخول عالم الأشباح والسحر لتعيدني في النهاية سليماً إلى الواقع البسيط الذي كان يستوعبني مواسياً مثل الجورب. بعدها مضت سنون. وكانت ثقتي في السحر قد تزعزعت وتطلّب الأمر محفّزات أقوى لاستعادة هذه الثقة. بدأت أبحث عنه في شيء غريب أو مفزع أو مسحور، وهذه المرّة أيضاً كانت خزانة، سعيت لتذوّق السحر منها. لكنّ اللعبة كانت أكثر جرأة. لقد ولّى عهد البراءة ومن المنْع خُلقت اللعبة. كان الممنوع هو بالتحديد الكتب التي كانت تعدني بتعويض كافٍ عن عالم الحكايات الخيالية المفقود. صحيح أنّ عناوين مثل: «اللّحن المقطوع» و«البكوريّة» و«هايماتوكارا»[1] كانت غامضة بالنسبة لي. لكنّ المفردتين «الأشباح» و«هوفمان» والتعليمات الصارمة بألاّ أفتح ذلك الكتاب، هذا كلّه كان يشكّل عندي ضمانة لكلّ تلك العناوين التي لم أكن لأفهمها. لكنّ أخيراً تمكّنت من الوصول إليها. أحياناً كان يصدف قبل الظهيرة أن أعود من المدرسة قبل أن ترجع أمّي من المدينة ويعود أبي من العمل. في مثل هذه الأيام كنت أتوجّه دون تضييع وقت إلى خزانة الكتب. كانت عبارة عن قطعة أثاث غريبة، واجهتها لا تشي بأنّها تأوي كتباً. أبوابها كانت مكسوّة بالزجاج داخل إطار من خشب البلّوط. والزجاج مكوّن من قطع صغيرة مستديرة تفصل كلّ واحدة عن جارتها حلقات من الرصاص. لكنّ هذه القطع الزجاجية المستديرة كانت ملوّنة بالأحمر والأخضر والأصفر ومعتمة تماماً. وهكذا كان زجاج هذه الأبواب عديم النفع. كان يلمع بانعكاسات مزعجة لا تدعو أحداً للاقتراب منه وكأنّه يريد الانتقام من مصيرٍ بمثل هذا السّوء. لكنّ حتّى لو كنت شممت آنذاك ذلك الهواء السيّئ المنتشر

1- قصص للكاتب الألماني إرنست تيودور أماديوس هوفمان (1776-1822) الذي اشتهر بكتابة القصص الخيالية المرعبة. المترجم.

Twitter: @ketab_n

حول قطعة الأثاث هذه، فما كان له أن يكون سوى محفّز إضافيّ للهجوم المباغت الذي خطّطتُ له في تلك الساعة القاحلة المتوهّجة الخطيرة من فترة ما قبل الظهيرة. كنت أفتح درفتَي الخزانة وأتحسّس المجلّد الذي كنت أبحث عنه، لا في صفوف الكتب بل في المنطقة المظلمة خلفها، وأفتحه بحماس على الصفحة التي كنت توقّفت عندها، وبدون أن أتحرّك من مكاني أبدأ أقلّب صفحات الكتاب أمام الخزانة المفتوحة بسرعة، مستغلاً الوقت حتّى مجيء والديّ. ما كنت أفهم شيئاً ممّا أقرأ. مع ذلك كان يتصاعد الذعر من كلّ صوت شبحيّ وكلّ منتصف ليلة وكلّ لعنة ويكتمل بمخاوف الأذُن التي كانت تتوقّع في كلّ لحظة صوت مفتاح البيت وصوت ارتطام مكتوم ناتج عن سقوط عصا تجوال أبي في سلّة المظلاّت. كون هذه الخزانة ظلّت هي الوحيدة المفتوحة بين الخزانات الأُخرى كان إشارة للوضعية الخاصّة التي تتمتّع بها السلع الروحيّة في هذا البيت –إذ لم يكن ثمة مجال لدخول الأخريات إلاّ عبر سلّة المفاتيح التي كانت ترافق ربّة البيت في كلّ مكان خلال تلك السنوات، والتي كانت مع ذلك تضيعها في كلّ خطوة. صلصلة كومة المفاتيح التي كانت تقلّبها كانت تسبق كلّ عمل منزليّ: لقد كانت هي الفوضى التي تثور داخل السلّة، قبل أن يطلّ علينا النظام المقدّس محيّياً خلف أبواب الخزانات المفتوحة، وكأننا أمام قلب بيت القربان. وقد تطلّب ذلك منّي الإجلال، لا بل التضحية أيضاً. بعد كلّ احتفال بعيد الميلاد أو بمولدي كان يُقرَّر أيّ الهدايا ستكون من نصيب «الخزانة الجديدة» التي احتفظت أمّي لي بمفتاحها. ظل كلّ ما هو مغلق جديداً. لكنّني لم أكن أفكّر بالجديد، بل بتجديد القديم. تجديد القديم عبر جعله ملْكاً لي أنا القادم الجديد، ولقد تجسّد ذلك في عملية جمع الأشياء التي امتلأ بها دُرجي. كنت أرى في كلّ حجر أعثر عليه وكلّ

Twitter: @ketab_n

زهرة أقطفها وكلّ فراشة أصطادها بداية مجموعة، وما امتلكته عموماً كان يشكّل بالنسبة لي مجموعة كبيرة منفردة. كان بإمكان «الترتيب والتنظيم» أن يدمّرا تماماً بناءً مليئاً بثمار كستناء شوكية كانت بالنسبة لي هراوات مسنّنة، وبورق من القصدير كان بالنسبة لي كنزاً من الفضة، وبمكعبّات بناء كانت بالنسبة لي توابيت، وبنباتات صبّار كانت بالنسبة لي أعمدة طوطمية، وبقروش نحاسية كانت تشكّل في نظري دروعاً. وهكذا راحت ممتلكات الطفولة تنمو وتتحوّل في الأدراج والعلب والصناديق. وما انتقل من بيت فلاحيّ إلى الحكاية الخيالية -تلك الغرفة التي حُرّمت على «طفلة مريم»[1]- تقلّص في منزل المدينة الكبيرة إلى خزانة. أكثر هذه الخزانات قتامة ورهبة كان هو البوفيه أو خزانة الصحون. وحقّاً، كانت معرفة حقيقة غرفة الطعام ولغزها المقبض أمراً لا يقدّره إلاّ من تمكن من تبيّن العلاقة غير المتناسبة للباب مع البوفيه الضخم الواصل إلى السقف. لقد بدا في مكانه في الغرفة وكأنّ له حقوقاً مكفولة كتلك التي كانت له في الفترة التي كان يقف فيها شاهداً على الآصرة الوثيقة التي كانت في عهود بعيدة تجمع بين قطّع الأثاث والبيوت. لم تقرّبه عاملة التنظيف التي كانت تزيح ما حولها. كانت تستطيع فقط حمل الأواني والإجّانات الفضية ومزهريّات دلْفت[2] والآنيات المايوركية والأباريق البرونزية والكؤوس الزجاجية التي ترقد في أرفُفه وتقف تحت مظلاّته الصدَفية وفي شرفاته ومنصّاته، وبين بوّاباته وأمام كسوة جدارنه الخشبية، وتُكدّسها في الغرفة المجاورة. هذا العلوّ الشاهق الذي تربّعت فيه هذه الأشياء جعلها غريبة

1- «طفلة مريم» من قصص الأخوين غريم وتحكي عن أنّ العذراء مريم قد أخذت معها ابنة فلاح فقير إلى مملكة السماء لتنعم بالحياة هناك، وأعطتها مفاتيح ثلاث عشرة غرفة وقالت لها أنّ بإمكانها فتح كلّ الغرف، ما عدا غرفة واحدة محرّمة، لكنّ فضول الطفلة يغلبها وتفتح الغرفة المحرّمة. المترجم.

2- نسبة إلى مدينة دلْفت الهولندية المشهورة بصنع أنيات زينة من البورسلين. المترجم.

Twitter: @ketab_n

عن أيّ استخدام عمليّ. ولهذا كان البوفيه ولأسباب وجيهة أشبه ما يكون بجبل الهيكل. كما أنّه استطاع أن يزهو بكنوز كالتي يحلو للأصنام أن تحاط بها. ولهذا كان اليوم الذي يقام فيه حفل لدينا هو اليوم المناسب له. فمن وقت الظهيرة تفتح كتلته الضخمة أبوابها لتتيح لي أن أنظر إلى خباياه المكسوّة بمخمل يشبه في لونه طحالب خضراء تميل إلى الرماديّ، وأرى كنوز البيت الفضيّة. والأشياء التي كانت فيه لم تكن مضاعفة عشر مرّات بل عشرين مرّة أو ثلاثين مرّة. وعندما كنت أرى هذه الصفوف البالغة الطول من ملاعق القهوة الصغيرة ومساند السكاكين وسكاكين الفاكهة أو ملاعق المحار، كانت البهجة بهذا الزخم تتنازع في داخلي مع الخوف، وكأنّ الضيوف المنتظرين سيشبهون بعضهم بعضاً مثلما تتشابه أطقُم مائدتنا.

Twitter: @ketab_n

كنت في طفولتي أسيراً لغرب برلين القديم ولغربها الجديد، فأهلي سكنوا هذين الحيّين في الماضي في موقف يخلط بين التعنّت والاعتزاز، وصنعوا منهما معزلاً، اعتبروه بمثابة إقطاعهم. ظللتُ حبيس هذه المنطقة الموسرة دون أن أعرف غيرها. وبالنسبة للأطفال الأغنياء في مثل عمري، لم يكن ثمة فقراء إلاّ في هيئة شحّاذين. وكان تقدّماً معرفيّاً كبيراً عندما تجلّى الفقر لي لأوّل مرّة متجسّداً في هوان العمل بأجر متدنٍّ. كان ذلك من خلال نصّ صغير كتبتُه لنفسي، وكان عن رجل يوزّع منشورات دعائية، وعن الإهانات التي يتلقاها من الجمهور الذي لم يكن يهتمّ بمنشوراته. وهكذا يتوصّل هذا المسكين -كما خلصتُ إليه في النهاية- إلى التخلّص سرّاً من كلّ منشوراته. بالطبع لم تكن هذه أفضل تسوية مثمرة للوضع. إلاّ أنّني لم يخطر ببالي آنذاك أيّ شكل آخر من أشكال التمرّد سوى التخريب، وقد نبع هذا من تجربتي الذاتية جدّاً. وإليها كنت ألجأ عندما كنت أسعى للتملّص من قبضة أمّي، وخصوصاً عند «شراء المؤن»، وكنت أفعل ذلك بعناد جامح يدفع بأمّي في كثير من الأحيان إلى حافّة اليأس. وتحديداً كنت قد تعوّدت أن أبقى على مسافة نصف خطوة وراءها، وكأنّني لا أريد بأيّ حال من الأحوال تشكيل جبهة، حتّى ولو كان ذلك مع أمّي. وقد اكتشفت لاحقاً كم أنا مدين بالعرفان لتلك المقاومة الحالمة في جولاتنا المشتركة عبر المدينة، عندما فتحت الأخيرة متاهتها للغريزة الجنسية. لكنّ الغريزة لم تبحث في تلمّساتها الأولى عن الجسد بل عن النفس المنبوذة تماماً، التي كانت أجنحتها تُطلق في ضوء المصباح الغازيّ لمعاناً عفناً، أو تنعس مطويّة تحت الفراء الذي تتشرنق فيه. وكنت أشعر

Twitter: @ketab_n

بالرضا عن هذه النظرة التي لا يبدو أنّها ترى ولا حتّى ثلث ما تلتقطه في الحقيقة. في السابق عندما كانت أمّي توبّخ عنادي وتلكّؤي، كنت أشعر على نحو مكتوم بإمكانِ تحالفي مع هذه الشوارع التي لم أكن على الأغلب أعرف طريقي فيها، بحيث أتحرّر من سلطة أمّي لاحقاً. لا شكّ بأيّ حال من الأحوال في أنّ شعوراً -خادعاً للأسف- بالانسلاخ من أمّي ومن طبقتها وطبقتي هو ما أدّى إلى وجود ذلك النزوع الطاغي إلى محادثة مومس في الطريق العامّ. استغرق الأمر سنوات حتّى تحقّق ذلك. والفزع الذي شعرت به أثناء ذلك كان هو الفزع ذاته الذي سيتملّكني لو كنت بصدد تشغيل إنسان آليّ يكفي طرح سؤال وحيد عليه لكي يعمل. وهكذا كنت ألقي بصوتي عبر الفتحة، ويفور الدم في أذني فلا أعود قادراً على التقاط ما يخرج من الفم المصبوغ بكثافة بأحمر الشفاه. هربت لكي أكرّر المحاولة الجسورة في الليلة نفسها -كما كان يحدث كثيراً. وعندما كنت أحياناً أتوقّف قرب الصبح عند مدخل أحد البيوت، أكون قد وقعت بلا أمل في حبائل أسفلت الشارع، ولم تكن أنظف الأيادي هي التي حرّرتني منها.

Twitter: @ketab_n

في الليلة السابقة على السفر، وعندما كان الآخرون لا يزالون مستيقظين، ألم يكن شريط الضوء أسفل باب غرفة النوم هو أوّل إشارة استعداد للرحلة؟ ألم يكن يتسلّل الضوء إلى ليل الطفل مليئاً بتوقّعات مثلما تسلّل، لاحقاً، شريط ضوء من أسفل ستارة المسرح إلى ليل جمهور ما؟ أعتقد أنّ سفينة الأحلام التي كانت تأخذنا كانت تتجاوز عند أسرّتنا ضجيج أمواج الأحاديث وزبد قرقعة الأطباق، وفي الصباح الباكر كانت ترسو بنا متوهّجين وكأنّنا قد عدنا من الرحلة التي كان مفترضاً أن نبدأها في تلك اللحظة. أثناء التنقّل بعربة خيل ذات قعقعة مدوّية تسير على امتداد قناة لاندفير،كان قلبي يفتمّ فجأة. بالتأكيد ليس بسبب ما سيأتي أو بسبب الوداع، بل بسبب الجلوس المشترك العقيم داخل العربة الذي كان يستمرّ ويتواصل ولا يتلاشى بفعل أنسام الرحلة مثلما يتطاير شبح قبل انبلاج الفجر، هذا الجلوس العقيم كان يغمرني بالحزن. لكنّ ليس لوقت طويل، فعندما كانت العربة تخلّف جادة «شوسيه» وراءها، كنت أسارع بالتفكير في رحلتنا بالقطار. ومنذ ذلك الحين تصبّ في مخيلتي كثبان شاطئ كوسيرو أو فينينفشتيدت وأنا لا أزال في شارع الأنفاليد في قلب برلين، فيما كانت أفكار الآخرين لم تتخطّ كتل الصخور الرملية في محطّة «شتيتين»[1]. لكنّ في غالب الأحيان كان الوصول إلى الهدف أقرب في الصباح الباكر. وتحديداً لمحطّة «أنهالت» التي هي المغارة الرئيسية للقطارات، حيث بيت كلّ القاطرات وحيث يتوجّب على القطارات أن تتوقّف. لم تكن ثمة مسافة أبعد من تلك التي تتلاقى فيها قضبان المحطّة.

1- هي محطة القطار البرلينية التي كانت مخصّصة للقطارات المتوجّهة إلى منطقة شتيتين الواقعة في بولندا حاليّاً. المترجم.

Twitter: @ketab_n

وسط الضباب. لكنّ حتّى القرب الذي كان يلفّني كان يبتعد. كان المنزل يبدو في ذاكرتي في صورة مختلفة. بسجاجيده التي طُويَت، وثريّاته التي خيطت حولها أكياس من الخيش والمقاعد التي غُطّيت بالبياضات، وبالضوء الشحيح المتسرّب عبر مَغالق النوافذ -ونحن بصدد وضع أقدامنا على عتبة قطار النوم- كان يُعطي مجالاً لتوقُّع أن تطأه أقدام غريبة بخطى حذرة، ربّما سرعان ما تمرّ فوق ألواح الأرضية، لتترك آثار اللصوص في غبارها الذي يكون قد اتّخذ مكانه في هدوء منذ ساعة. لذلك كنت أعود في كلّ مرّة من العطلة كالمشرّد. وكان أدنى تجويف قبو يشتعل فيه الضوء يبدو لي أكثر جاذبية بالمقارنة مع بيتنا الذي أظلم في الغرب البرلينيّ. كانت الأفنية تقدّم لي الكثير من الملاذات الصغيرة الحزينة عند عودتنا من منتجعات بانزين أو هانينكليه. وبالطبع كانت المدينة تسترجعها بعد ذلك وكأنّها تندم على ما أبدته من استعداد للمساعدة. مع ذلك فعندما كان يحدث أن يتباطأ القطار أمام هذه الأفنية، كان ذلك بسبب إشارة ضوئية استوقفته لفترة وجيزة قبل أن تسمح له بدخول المحطّة. وكلّما تحرّك القطار ببطء تلاشى بسرعة أكبر ذلك الأمل في الهروب من مسكن العائلة القريب إلى ما وراء الجدران العازلة بين البيوت. لكنّ تلك الدقائق التي لا تحصى قبل أن ينزل الجميع من القطار لا تزال حاضرة ليومنا هذا أمام عينيّ. قد تكون نظراتٌ لامستْها كما لامستْ في الأفنية تلك النوافذَ المحشورة في جدران مهدّمة والتي يشتعل خلفها مصباح.

Twitter: @ketab_n

لا نستطيع أبداً استعادة ما هو منسيّ استعادة تامة. وربّما يكون هذا جيّداً. فصدمة الاستعادة ستكون مدمّرة جدّاً بحيث يتحتّم علينا في التوّ واللحظة التوقّف عن محاولة فهم سرّ حنيننا. لكنّ هكذا يمكننا فهم المنسيّ، وكلّما كان غارقاً أكثر في أعماقنا كان ذلك أفضل. مثل الكلمة المفقودة التي كانت لتوّها على شفتينا، والتي كانت ستجعل اللسان ينفلت بطلاقة ديموستين، هكذا يبدو المنسيّ مثقلاً بكلّ الحياة المعيشة التي كان قد وعَدَنا بها. ربّما لا يعدو ما يجعل المنسيّ نفسه مثقلاً وزخِماً أن يكون مجرّد أثر لعادات بائدة لم يعد بإمكاننا أن نجد أنفسنا فيها مجدّداً. ربّما يكون امتزاجه مع غبرة بيتنا المهدّم هو السرّ الذي يستمدّ منه بقاءه. وعموماً يوجد لدى كلّ شخص أشياء نمت وطوّرت في داخله عادات لها ديمومة أكثر من العادات الأُخرى، وعلى أساسها تشكّلت القدرات التي أسهمت في تحديد وجوده. ولأنّ القراءة والكتابة هما الشيئان اللّذان كانا يخصّانني، فليس ثمة شيء ممّا سكن داخلي في سنواتي الأولى يثير فيَّ حنيناً أكبر من صندوق القراءة. كان يضمّ في داخله الحروف على هيئة أقراص صغيرة بخطّ الكتابة المائل، الذي بدا أكثر صِباً ورقّةً من الخطّ المطبوع. وقد رقدت الحروف برشاقة في موضعها المائل داخل الصندوق. كلّ واحد منها كان مكتملاً بذاته، وكانت مترابطة في ترتيبها وفقاً لقواعد طائفتها -أي وفقاً للكلمة- التي تنتمي لها انتماء الراهبات لطائفة ما. كنت أندهش كيف كان لهذا القدر من التواضع أن يتّحد مع كلّ هذه الروعة. كانت حالة من النعمة، ويدي اليمنى التي كانت تسعى في طواعية لبلوغ هذه النعمة، لم تنلها. كان عليها أن تنتظر في الخارج مثل

Twitter: @ketab_n

البوّاب الذي يسمح بدخول من تمّ اصطفاؤهم. وهكذا كان تعامل يدي مع الحروف مفعماً بنكران الذات. الحنين الذي يوقظه صندوق القراءة في يثبت كيف أنّه كان متوحّداً لدرجة كبيرة مع طفولتي. ما كنت أبحث عنه فيه كان في الحقيقة هو الطفولة كلّها، وما كانت تعوّل عليه في تحريك اليد للحروف التي تصطفّ ككلمات على اللوح المخصّص لذلك. يمكن لليد أن تحلم بهذه الحركة دون أن تصحو أبداً لكي تتمّها. وهكذا يمكنني أن أحلم بكيفية تعلّمي المشيَ في الماضي. لكنّ ذلك لا يسعفني إطلاقاً. الآن أستطيع المشي، لكنّني لا أستطيع تعلّم المشي.

Twitter: @ketab_n

البهجة التي كان المرء يتلقّاه بها وهو لا يكاد يجرؤ على تصفّح هذا المطبوع كانت كمثْلِ بهجة الضيف الذي وصل إلى قصر ولا يكاد يجرؤ على النظر إلى السلسلة الطويلة من المقصورات التي يتحتّم عليه المرور بها حتّى يصل إلى غرفته. ولهذا يتعجّل أن يُسمح له بأن يأوي إلى فراشه. وهكذا كنت أنا أيضاً في كلّ عام، ما أكاد أعثر على المجلّد الأخير من «رفيق الشباب الألماني الجديد»[1] على مائدة هدايا عيد الميلاد، حتّى أنسحب وراء السور الواقي لغلافه المزيّن بشعاره لكي أتحسّس طريقي في غرفة السلاح والصيد التي أردت أن أقضي فيها ليلتي الأولى. لم يكن ثمة شيء أجمل من أن أتقفّى خلال هذا الفحص الخاطف لمتاهة القراءة أثر الدهاليز السفلية، التي تُبتَر فيها أحداث القصص الطويلة عند نقاط عديدة لتظهر ثانيةً عبر كلمة «نتمّة» التي كانت تمرّ عبر المجلّد كلّه. ماذا كان يعني أن يبدو عبق حلوى اللوز وكأنّه قد تخلّل فجأة دخان معركة وقعت عيني عليها أثناء تصفحّي النشوان للمجلّد؟ لو جلستَ لفترة متعمّقاً وعدتَ مرّة أُخرى إلى مائدة الهدايا لما وجدتَها على هيئتها التي كادت أن تكون مهيبة في المرّة الأولى لدخولك غرفة عيد الميلاد، بل بدا الأمر وكأنّك تهبط من منصّة صغيرة تقودك من قصر أشباحنا إلى المساء.

1- من مجلاّت الناشئة التي كانت تحتوي على حكايات تاريخية ومغامرات مشوّقة. المترجم.

Twitter: @ketab_n

كان الأمر يتمّ خلال الاستراحة: تُجمع الكتب ثمّ توزع مجدّداً على طالبيها. لم أكن دائماً سريعاً بالقدر الكافي. كثيراً ما رغبت في مجلّدات وقعت في أيدي من لا يعرفون قيمتها. كم كان العالم مختلفاً عن كتب المطالعة التي كنت أقبع في قصص منفردة منها أيّاماً، لا بل أسابيع، وكأنّني في ثكنات عسكرية يوجد أعلى بوّابتها رقم يسبق عنوانها. لكنّ خنادق القصائد الوطنية المحصّنة كانت أسوأ، إذ كان كلّ بيت فيها عبارة عن زنزانة. كم كانت نسائم المطالعة التي تهبّ من الكتب المعارة في الاستراحة جنوبية ولطيفة! إنّه هواء روايات المغامرات، الهواء الذي هبّ من كاتدرائية شتيفان على الأتراك أثناء محاصرتهم لفيينا. شكّلَ دخان أزرق سحُباً من غلايين مجالس التبغ، وتراقصت ندف الثلج على ضفاف نهر بيرتسينا وأنذرَ شعاع خافت بقرب نهاية بومبيي. لكنّه كان هواءً راكداً عندما كان يهبّ علينا من كتب أوسكار هوكر وفيلهيلم أورتل فون هورن أو من كتب يوليوس فولف وغيورغ إيبرز[1]. أمّا الهواء الأكثر عطناً فكان في مجلّدات "من ماضي الوطن" التي تجمّعت لدينا بكثرة في الصفّ الخامس بحيث أصبح احتمال الالتفاف عليها والحصول على كتاب لفوريسهوفر ولفيليكس دان[2] ضئيلاً. وقد طُبعت في غلافها الكتّانيّ الأحمر صورة لمحارب يحمل طبَراً. أما النصّ فيعرض تلاقي مجموعات فرسان يحملون بيارق ملوّنة ومتدرّبين حرفيّين شرفاء وبنات آمري قلاع

1- أوسكار هوكر (1840-1894)، وفيلهيلم أورتل فون هورن (1798-1867) من مؤلّفي كتب الناشئة الألمان في القرن التاسع عشر. يوليوس فولف (1834-1910) شاعر وروائيّ ألمانيّ. غيورغ إيبرز (1837-1898) عالم مصريّات ومؤلف للروايات التاريخية. المترجم.

2- صوفي فوريسهوفر (1838-1890) كاتبة ألمانية اشتهرت بتأليف روايات المغامرات وكتب الناشئة، أما فيليكس دان (1834-1912) فهو مؤرّخ ألمانيّ اشتهر بكتابات روايات عن هجرات الشعوب الجرمانية. المترجم.

Twitter: @ketab_n

أو صنّاع أسلحة شقراوات وتابعي إقطاعيّين يؤدّون يمين الولاء لسادتهم. لكنّ كان هناك أيضاً الحاجب المخادع الذي يحوك المؤمرات والمرتزقة الذين يعملون لحساب ملك أجنبيّ. وكلّما قلّ اعتبارنا، نحن أبناء التجّار وموظّفي الدولة، لعوالم العبيد والسادة هذه، دخلت هذه العوالم إلى بيوتنا، كأنّما من وراء ظهورنا. الشعارات التي كانت تعلو قلاعهم وجدتُها في مقعد أبي الجلديّ، حيث اعتلت عرشها أمام المكتب. والأباريق التي أحاطت بالمائدة المستديرة ليوهان تزركليس دوق تيلي كانت موجودة في بيتنا على خزانة المدفأة الخزفيّة أو على الصّوانة العالية في الردهة، والكراسي الواطئة كتلك الموضوعة في الزوايا لتسدّ الطريق في مَهاجِع الجنود، كانت موجودة في نقوش نُجودِ منزلنا، لكنّ دون أن يكون فارس من أسرة برتفيتز البولندية النبيلة متربّعاً عليها من أجل الحراسة. في حالة واحدة نجح التمازج بين العالمين بشكل جيّد جدّاً. كان ذلك في أجواء رواية لم يناسب عنوانها محتواها. ما بقي عالقاً في ذهني هو الجزء الذي كان فيه صورة ليثوغرافية لم يخفت فزعي منها أبداً كلّما رأيتها. كنت أهرب من تلك الصورة وأبحث عنها في الوقت ذاته. كنت أشعر تماماً بما شعرت به لاحقاً إزاء صورة في «روبنسون كروسو» تُظهر تابعه «جُمعة» عندما أدرك للمرّة الأولى آثار خطى غريبة وعثر غير بعيد عنها على جماجم وهياكل عظميّة. لكنّ أكبر منه كان فزعي من تلك المرأة التي كانت تبدو وكأنّها نائمة بعينين مفتوحتين وتتجوّل في دهليزٍ ممسكةً بشمعدان مائل كمثّل عصا. كانت المرأة مصابة بـ «الكليبتومانيا» أي داء السرقة، وهذه الكلمة «كليبتومانيا»، بوقعها الشبحيّ الشرّير الذي يشبه وجه الميت في لوحات هوكوزاي، كانت تجعلني أتحجّر من الفزع. كان الكتاب، واسمه «القوّة الكامنة»، قد عاد إلى أرفف مكتبة الصفّ

Twitter: @ketab_n

الخامس منذ فترة طويلة، عندما أصبح هذا الممرّ الواصل في بيتنا بين الغرفة الوسطى والغرف الخلفية هو بالنسبة لي ذلك الدهليز الطويل الذي كانت تتجوّل فيه سيّدة القصر تلك. وسواء أكانت تلك الكتب مريحة أو مفزعة، مملّة أو مثيرة، لم يكن ثمة شيء يمكنه أن يقلّل أو يزيد من سحرها. لأنّ الأمر لم يكن يتوقّف على محتواها، بل بالأحرى على تأمين ربع الساعة ذاك الذي كان يجعلني أحتمل بؤس العمل المدرسيّ العقيم، بصورة مستمرّة. كنت أهيّئ نفسي لها عندما كنت أضع مساءً الكتاب في محفظتي الجاهزة التي تصبح أخفّ بهذا الحمل الزائد. الظلمة التي كان يشارك فيها الكتاب كرّاساتي وكتبي المدرسية وعلبة أقلامي كانت ملائمة لهذه العملية السريّة التي كانت تنتظره في الصباح التالي. لأنّه حينها، وفي المكان نفسه الذي كان مسرحاً لإذلالي، تأتي أخيراً تلك اللحظة التي أنعم فيها بوافر السلطة، مثلما يحدث لفاوست عندما يظهر له ميفستوفيليس. فماذا كان المعلّم الذي كان يغادر منصّته ليجمع كتباً ويضعها في مكتبة قاعة الدروس ثمّ يوزعها سوى شيطان دنيء يضطر للتخلّي عن قدرته على الضرر، ليُظهر لي فنونه في خدمة شهواتي؟ ألم تفشل كلّ محاولة من محاولاته الخجولة في التأثير على خياراتي؟ وكم بقي مصدوماً تماماً كشيطان مسكين ومجبور على السخرة، فيما كنت أرتحل على بساط سحريّ إلى خيمة آخر قبائل الموهيكان أو إلى معسكر كونراندين فون شتاوفن[1]!

1- كونراد فون شتاوفن (1252-1268) كان آخر وريث شرعيّ لأسرة شتاوفر الحاكمة، وملكاً لصقلية والقدس وتمّ إعدامه في نابولي بعد فشل حملته العسكرية لاسترداد ممتلكات أسرته في جنوب إيطاليا. المترجم.

Twitter: @ketab_n

الدوّارة

كانت المنصّة ذات الحيوانات اليسيرة القيادة تدور بالقرب من الأرض. يجعلك علوّها تحلم بالطيران على أفضل وجه. تبدأ الموسيقى ويدور الطفل مبتعداً عن أمّه. يخشى في البداية مفارقتها ثمّ يلاحظ بعد ذلك كيف أنّه وفّى لنفسه. يتربّع كحاكم مخلص على عرش عالم يملكه. عند أطرافه تصنع الأشجار وأهل المدينة جوقة تشريف. عندئذ تظهر الأمّ ثانيةً في شرقٍ ما. ثمّ تنبثق من الأدغال ذؤابةُ شجرةٍ، كتلك الذي رآها الطفل قبل آلاف السنين، والتي رآها لتوّه ولأوّل مرّة هنا فوق الدوّارة[1]. كان حيوانه متمسّكاً به: وهو مثل آريون أصمّ يركب فوق دلفينه الصامت، يخطفه زفْس محوَّل إلى ثور خشبيّ كما لو كان هو أوروبا العفيفة. وهكذا يصبح العَود الأبديّ لكلّ الأشياء حكمة طفولية قديمة والحياة انتشاءً عتيقاً بالسلطة مع الأرغن الآليّ المدوّي كدّرة التاج في الوسط. وإذا ما تباطأ في لعبه بدأ المكان بالتلعثم وشرعت الأشجار في استعادة وعيها، وأصبحت الدوّارة أرضاً غير مستقرّة. ثمّ تظهر الأمّ -تلك الدعامة المثبّتة بقوّة، التي يلفّ حولها الطفل المتأهّب للنزول حبلَ نظراته.

1- هي لعبة الأحصنة الخشبيّة التي تتحرّك دائرياً في مدن الألعاب ومهرجانات الأعياد. المترجم.

Twitter: @ketab_n

غرفة المؤن

كانت يدي تتسلّل عبر شقّ خزانة المؤن التي لم تكد تُفتح، مثلما يتسلّل عاشق بليل. وبمجرّد أن تشعر بالألفة في الظلام، تتحسّس باحثة عن السكّر أو اللوز، عن الزبيب أو الفواكه المحفوظة. ومثل العاشق الذي يعانق فتاته قبل أن يقبّلها، كان لحاسّة اللمس موعد غراميّ مع كلّ هذه الأشياء قبل أن يذوق الفم حلاوتها. بأيّ دلال استسلم العسل وحبّات الكشمش بل والإرزّ أيضاً لليد! وكم كان مشبوباً بالعاطفة هذا اللقاء بين الاثنين اللذين انسلاّ في النهاية من الملعقة! ممتنّاً وطائشاً مثل فتاة خُطفت من بيت أهلها، وهب مربّى الفراولة نفسه للتذوّق بدون خبز وكأنّه في الخلاء تحت السماء المفتوحة. وحتّى الزبدة قابلت جسارة الغاوي الذي اقتحم غرفتها بالرقّة واللطف. وسرعان ما كانت اليد، هذا الدون خوان الشابّ، قد وصلت إلى كلّ زاوية وركن، مخلّفةً وراءها طبقات سائلة وكميّات متدفّقة: عذريّة تجدّد نفسها دون أيّة شكوى.

Twitter: @ketab_n

«مسرح القرود»

«مسرح القرود»[1]: يجد الكبار شيئاً من الغرابة في هذا التعبير. وهذه الغرابة غابت عنه عندما سمعتُه للمرّة الأولى. كنت لا أزال صغيراً. وبالنسبة لي كان الأمر الأكثرُ غرابة من اعتلاء القرود لخشبة المسرح، هو المسرح في حدّ ذاته. كلمة المسرح كانت تخترق قلبي مثل دويّ آلة ترومبيت. فتثور الفانتازيا في داخلي. ومع ذلك فإن كلّ أثر تتعلّق به لم يكن ذاك الذي يؤدّي إلى ما وراء الكواليس ويقود الصبيّ لاحقاً، بل هو أثر السّعداء والأذكياء الذين استفادوا من سماح آبائهم لهم بالذهاب للمسرح عصراً. كان المدخل إليه يؤدّي عبر كوّة في الزمن إلى كشف ركن في النهار، ركن ما بعد الظهيرة الذي كان له رائحة المصباح ووقت الذهاب للنوم. ليس من أجل إمتاع النظر بوليام تل أو بالجميلة النائمة، على الأقلّ ليس لهذا الفرض وحده. الشيء الآخر كان أسمى: الجلوس في المسرح وسط الحاضرين الآخرين. لم أكن أعرف ما الذي كان ينتظرني، لكنّ ما بدا لي أكيداً هو أن أرى نفسي مجرّد جزء، أجل مجرّد تمهيد لنشاط أهمّ بكثير أجدني منخرطاً فيه مع آخرين. لكنّني لم أعرف أيّ نوع من النشاط كان من المفترض أن يكون. بالتأكيد كان نشاطاً متعلّقاً بالقردة بقدر ما كان متعلّقاً أيضاً بفرقة التمثيل. كما أنّ المسافة بين القرد والإنسان لم تكن أبعد من تلك التي كانت بين الإنسان وممثّل المسرح.

1- تعبير Affentheater بالألمانية، وترجمته الحرفية «مسرح القرود»، يُقصد به الجمجمة والسلوكيّات المبالغ فيها في التفاعل مع موقف ما، وبنيامين يلعب على الكلمة المركّبة من «مسرح» و«قرود»، ولذا آثرنا الاحتفاظ بترجمتها الحرفية. المترجم.

Twitter: @ketab_n

في تلك الشوارع التي جبتها لاحقاً في جولات لا نهاية لها، ، فاجأتني يقظة الغريزة الجنسية، عندما آن أوانها، في ظروف غريبة. كان ذلك في عيد رأس السنة اليهودية. رتّب والديّ من أجل إرسالي إلى احتفال دينيّ. ربّما كان الاحتفال لدى تلك الطائفة الإصلاحية التي كانت أمّي تميل إليها بحكم تقاليد عائلتها. وقد عهدوا بي في هذا العيد إلى أحد أقربائنا البعيدين، وكان عليّ أن أذهب إليه لإحضاره. ولكنّ لكوني نسيت عنوانه أو لأنّني تهت في المنطقة، تأخّر الوقت كثيراً وازداد ضياعي مع كثرة اللفّ والدوران. لم يكن مطروحاً أن أتجرّأ على الذهاب إلى الكنيس لوحدي، لأنّ بطاقات الدخول كانت مع الشخص المكلّف برعايتي. كان السبب الرئيسيّ في سوء حظّي هو نفوري من هذا الشخص الذي لا أكاد أعرفه والذي كنت مرتبطاً به، وريبتي من هذه الاحتفالات الدينية التي لا تسبّب لي سوى الارتباك. وسط هذه الحيرة غمرتني فجأة موجة خوف ساخنة - «تأخّر الوقت، فاتك الكنيس»- ولكنّ بالضبط في هذه اللحظة وقبل أن تنحسر غمرتْني موجة ثانية من الانعدام التامّ لوخز الضمير - «فلتسر الأمور كما تسير، لا شأن لي بذلك». وكلا الموجتين ارتطمتا إحداهما بالأُخرى بلا هوادة في أوّل شعور باللذّة اختلط فيه تدنيس العيد بأجواء القوادة في الشارع، أجواء جعلتني أدرك هنا للمرّة الأولى هذه الخدمات التي من المفترض أن تقدّمها للغريزة التي استيقظتْ.

Twitter: @ketab_n

المكتب

اكتشف الطبيب قصر نظري، ولم يصف لي نظارة فحسب، بل وأيضاً مكتباً. كان المكتب مصمّماً ببراعة، فكان من الممكن تغيير وضع كرسيّه بحيث يكون قريباً أو بعيداً من الطاولة التي كانت مائلة ومخصّصة للكتابة. إلى ذلك كان اللوح الأفقيّ على المسند يوفّر دعماً للظهر، ناهيك عن رفّ الكتب الذي كان درّة هذا المكتب وكان من الممكن تحريكه. لقد أصبح المكتب الموضوع أمام النافذة هو مكاني المفضّل. ولم تحتوِ الخزانة الصغيرة المخبّأة تحت مقعده على الكتب التي أحضرتها من المدرسة فحسب بل كذلك على ألبوم الطوابع وعلى الألبومات الثلاثة الأُخرى التي ضمّت مجموعة بطاقاتي البريدية. وعلى الخطّاف القويّ المعلّق إلى جانب المكتب لم تُعلّق، إلى جانب سلّة الإفطار، محفظة كتبي فحسب بل أيضاً رماح زيّ فرسان «الهوصار» وعلبة حفظ العيّنات. كثيراً ما كان أوّل شيء أفعله عند عودتي من المدرسة هو الاحتفال بملاقاة مكتبي مجدّداً، وذلك من خلال تحويله إلى ساحة لأحد نشاطاتي المحبّبة -كقصّ الصور-، ولهذا الغرض كان يوضع فنجان من الماء الدافئ في موضع دواة الحبر، وكنت أبدأ في قصّ الصور ولصقها. كم كان واعداً ذلك الحجاب الذي كانت هذه الصور تحدق فيّ من ورائه في الألبومات والكراريس: إسكافيّ فوق طاولته، وأطفال يقطفون التفّاح وهم جالسون على الشجرة، وبائع حليب أمام الباب الشتويّ الذي كساه الثلج، ونمر يتأهّب للقفز على الصيّاد الذي أطلق النار للتوّ من بندقيّته، وصيّاد السمك وسط الحشائش أمام الجدول المائيّ الأزرق، وتلاميذ فصل مدرسيّ يقدّرون مدرّسهم الذي يشرح لهم شيئاً على السبّورة، وصيدليّ أمام دكانه المليء

Twitter: @ketab_n

بالبضائع الملوّنة، وفنار يبحر أمامه قارب شراعيّ -كلّ هذه الصور كانت تغطّيها غلالة من الضباب. لكنّ عندما كانت الصور ترقد في مكانها على الورقة وقد غمرتها إضاءة لطيفة وتدور أطراف أصابعي بحذر لتفرك وتدعك قفا طبقة الورق السميكة غدواً ورواحاً إلى أن تزيلها في شكل لفافات رقيقة، وتسطع في النهاية على قفاها المتشقّق المقشور بقع لونية صغيرة نضرة وطبيعيّة، كان الأمر يبدو وكأنّ شمس سبتمبر الساطعة قد أشرقت على عالم الصباح الشاحب الكابي، ولاقت كلّ الأشياء، التي بقيت مبلّلة بفعل الطلّ، الذي تجدّد عند الفجر، وهجَ يوم خلقٍ جديد. لكنّني كنت إذا ما مللت من هذه اللعبة، أجد دائماً حجّة للاستمرار في تأجيل الواجبات المدرسية. وكنت أحبّ كثيراً تصفّح الكرّاسات القديمة التي اكتسبت قيمة خاصة جدّاً عندي بحيث تمكّنت من حفظها بعيداً عن أيدي المدرّس الذي كان له الحقّ في الاحتفاظ بها. ثمّ تستقرّ نظرتي على التصحيحات التي كتبها فيها بالحبر الأحمر ويغمرني سرور خفيّ. فمثلما لا يمكن لأسماء محفورة على شواهد القبور أن تضرّ أو تنفع، فقدت هذه الدرجات في الكراسات القديمة سطوتها. وعلى نحو آخر وبضمير أكثر ارتياحاً كنت أضيع ساعة ملتهياً بكرّاسات المدرسة وكتبها، إذ لا بدّ من تجليد الكتب بورق التغليف الأزرق المقوّى، أمّا الكرّاسات فكانت التعليمات تفرض أن تثبّت بكلّ واحدة منها ورقة النشّاف الخاصّة بها، بحيث لا تسقط منها. لهذا الغرض كان هناك أشرطة يمكن للمرء أن يشتريها بألوان مختلفة. وعلى غلاف كلّ كرّاسة وعلى كلّ ورقة نشّاف كان يتمّ تثبيت هذه الأشرطة برقع لاصقة. وعندما يتوفّر بعض الغنى اللونيّ، يمكن للمرء بأشكال متنوّعة جدّاً أن يخلق أبهج التشكيلات وأكثرها بهرجة. وهكذا، فلئن كان المكتب شبيهاً بمقاعد قاعة الدروس إلاّ أنّه كان

Twitter: @ketab_n

أفضل، لأنّني كنت أشعر فيه بالأمان وكان مكاناً لأشياء لا ينبغي أن يعرفوا عنها شيئاً. لقد تضامنّا أنا والمكتب معاً ضدّهم. وبمجرّد استعادتي له بعد نهار المدرسة المقفر، كان يهبني قوى جديدة. ولم يقتصر الأمر على أنّني كنت فيه أشعر أنّني في بيتي، بل كنت داخل قوقعتي، مثل أحد رجال الدين الذين يركعون على كرسيّ الصلاة أو يجلسون إلى مكتبهم في صور القرون الوسطى ويبدون وكأنّهم داخل درع واقٍ. في هذا المقام قرأت «الدائن والمدين» لفوستاف فرايتاغ و«قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز. كنت أختار أكثر أوقات اليوم هدوءاً وهذا المكان الأكثر عزلة في البيت. وبعدها كنت أفتح الصفحة الأولى، وكنت في تلك الأثناء أشعر بجو احتفاليّ مثل شخص يضع قدمه على أرض جديدة. وبالفعل كانت أرضاً جديدة تلك التي تزحزحت فيها القرم والقاهرة، وبابل وبغداد، وألاسكا وطشقند، ودلفي وديترويت، لتصبح قريبة جدّاً من بعضها البعض مثل ميداليّات علب السيجار الذهبية التي كنت أجمعها. ولم يكن ثمة شيء يسرّني عنّي أفضل من أن أقضي الوقت هكذا محاطاً بكلّ أدوات تعذيبي -كقوائم المفردات والفرجارات والقواميس- لا سيّما وأنّ مطالب هذه الأشياء كانت قد صارت معدومة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

فالتر بنيامين (1892-1940) أحد أهمّ المفكّرين ونقّاد الأدب الألمان في القرن العشرين. تميّز بفرادة تأمّلاته حول اللغة والأدب والفنّ والتاريخ. درس الفلسفة في جامعات فرايبورغ وبرلين وميونيخ وبرن. وعاش في برلين ككاتب ومترجم، إلى أن قرّر في عام 1933 ومع صعود النازيّين إلى الحكم الهجرة إلى فرنسا. انتحر في السابع والعشرين من سبتمبر عام 1940 في بوربو Portbou على الحدود الفرنسية الإسبانية خوفاً من اعتقاله على يد القوّات النازية.

من بين أشهر مؤلفاته «العمل الفنيّ في عصر استنساخه التقنيّ»، و«مهمّة المترجم» و «باريس عاصمة القرن التاسع عشر» و«صورة بروست» و«حول مفهوم التاريخ»، و«شارع ذو اتّجاه واحد». كما قام بنيامين بالاشتراك مع فرانتس هيسل بترجمة «البحث عن الزمن المفقود» لمارسيل بروست إلى اللغة الألمانيّة.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجم:

وُلد أحمد فاروق في الجيزة بمصر عام 1971. درس الإعلام في جامعة القاهرة والترجمة في كلية علوم اللغة والثقافة التطبيقية في غرمرسهايم / جامعة ماينتس في ألمانيا. ترجم عن الألمانية روايتي «سنوات الكلاب» لغونتر غراس (2003) و«ليبيديسي» لغيورغ كلاين (2007)، فضلاً عن مقالات نقدية لميشائيل مار بعنوان «فهود في المعبد».

Twitter: @ketab_n

طفولة برلينية.. في مطلع القرن العشرين

«في الأماسي الشتوية كانت أمي تأخذني معها للتسوّق. برلين التي امتدّت أمامي آنذاك كانت مظلمة ومجهولة. لقد بقينا في الغرب القديم الذي كانت ملامح شوارعه أكثر ألفة وتواضعاً من تلك المفضّلة لديّ لاحقاً. لم تعد النوافذ البارزة والأعمدة ملحوظة بوضوح. وكان يبزغ ضوء في الواجهات. لكنّ ذلك الضوء الذي كان ينفذ عبر ستائر الموسلين أو عبر النافذة أو من زجاجة المصباح الغازي تحت النجفة. لم يكن يكشف من الحجرات المضاءة إلاّ قليلاً. لقد كان هذا الضوء موجوداً من أجل ذاته وقد جذبني وجعلني ميّالاً للتأمّل. ولا يزال هذا الأثر يفعل فعله في الذاكرة حتّى اليوم ويحيلني ذلك إلى إحدى بطاقاتي البريدية التي تصوّر ساحة برلينية. المنازل المحيطة بالساحة لها زرقة خفيفة والسماء الليلية المقمرة كانت أكثر دكنة. احتلّ القمر وجميع النوافذ مساحات بيضاء وسط زرقة البطاقة الكرتونية. وكانت في حاجة لأن توضع أمام مصباح كي يظهر ضوء أصفر من السحب وصفوف النوافذ. لم أكن أعرف المنطقة التي تصوّرها البطاقة. لقد كُتب أسفلها "بوّابة هاله": البوّابة والقاعة اجتمعتا وشكّلتا الكهف المضيء الذي أكتشف فيه ذكرياتي عن برلين الشتوية».

فالتر بنيامين

@ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY
9 789948 172505